طريق الفلاح الأبدي

د. مراد كَيا

دار الأرقم



اسطنبول ٢٠١٦م/ ١٤٣٧هـ

إسطنبول: ١٤٣٧هـ/ ٢٠١٦م

اسم الكتاب باللغة التركية: Ebedi Kurtuluş Yolu

الترجمة للعربية: طريق الفَلَاح الأَبدي

مراجعة وتصحيح وتدقيق: أَحمد حمدي

تصميم وتنضيد: حسام يوسف

ISBN ٩٧٨٩٩٤٤٨٣٥٤٥٩

طباعة وتغليف: مطبعة دار الأرقم

Language : Arabic

العنوان:



▸ Address : Ikitelli Organize Sanayi Bölgesi Mahallesi
Atatürk Bulvarı Haseyad 1. Kısım No: 60/3-C
Başakşehir - İstanbul / TURKEY

Phone : +90 212 671 07 00 (Pbx)

Fax : +90 212 671 07 48

E-mail : info@islamicpublishing.net

Web site : www.islamicpublishing.net

طريق الفَلَاحِ الأَبدي

تأليف

د. مراد كايا

ترجمة

أرسين إشجي أوغلو

فاطمة إشجي أوغلو

مدخل

١. الإنسان والكائنات والخالق

يقول مولانا جلال الدين الرومي:

«جاء أحد الثيران ذات يوم إلى بغداد عاصمة الحضارة في زمانها وتجول في البلد من أوله إلى آخره، ولكنه لم يلفت انتباهه من كل ذلك الجمال الرائع واللذائذ وروائع الفن والصناعة إلا قشور البطيخ والشمام الملقاة على جانب الطريق، وبالفعل فإن اللائق بالثور والحمار إما التبن الملقى أو العشب النابت على جوانب الطرق» (المثنوي، جـ ٤، البيت: ٢٣٧٧ ـ ٢٣٧٩).

وأما نحن –بني البشر– فحريٌّ بنا ألا يَشغلنا الأكل والشرب واللّهو في هذه الدنيا بل علينا أن نقف ونتأمل وننظر من أين أتينا، وإلى أين نحن ماضون، ونضع بعد ذلك وجهةً لحياتنا، وقبل كل شيء لا بد من التفكر العميق في خلْقنا وتكويننا البدني والعقلي والأوصاف المتفوقة التي نتمتع بها، والتأملِ في الكائنات، والبحثِ في تفاصيل ذلك كله فعندها تصير حياتنا أكثر معنىً.

على سبيل المثال: لنتأمل التراب! مع أنه يسقى بماء واحد تنبت فيه آلاف النباتات المتنوعة فتعطينا فواكه وخضراوات مختلفة الألوان والأشكال، وهي تقوم بذلك بنظام وترتيب كاملين. أوَليس التفاضل والاختلاف بين المأكولات التي تنمو من التراب والماء ذاته أمر يترك العقول في حيرة كبيرة؟.[1]

ثم لنحوّل أعيننا إلى السماء ونشاهد النظام العظيم والمذهل: فالشمس مثلاً تبعد عن الأرض ١٥٠ مليون كيلو متر وهي نجم متوسط الحجم، وبالنظر إلى حجمها فإنها كبيرة بحيث يمكنها أن تضم داخلها ١٣٠٠٠٠٠ كوكبٍ مثل الأرض وتبلغ حرارة سطحها ٦٠٠٠ درجةٍ مئويةٍ وأما درجةً حرارة باطن الشمس فتبلغ ٢٠ مليون درجة مئوية. وهذه الشمس في يوم واحد تقطع مسافة تساوي ١٧ مليوناً و٢٨٠ ألف كيلو متر تقريباً.

ويتحول فيها في كل ثانية ٥٦٤ مليون طن من الهيدروجين إلى ٥٦٠ مليون طن من غاز الهليوم، وأما المادة الغازية المتبقية المتوسطة والبالغة ٤ مليون طن فتتفرق على شكل طاقة أي أن الشمس تفقد وتستهلك في الثانية ٤ مليون طن وفي الدقيقة ٢٤٠ مليون طن من المواد .فإن كانت الشمس تنتج بهذه السرعة الهائلة منذ ٣ مليارات سنة هذا الكمّ من الطاقة تكون الكتلة التي فقدتها في هذه الفترة

١. القرآن الكريم، سورة الرعد، ٤ .



مليون طن ل ٤٠٠٠٠٠ مليون مرة، ومع ذلك فهذه القيمة لا تبلغ إلا واحداً من ٥٠٠٠ من مجموع كتلة الشمس الحالية.

وأما بُعْدُ أرضنا عن الشمس الكتلة العظيمة ومصدر الطاقة الكبيرة فقد حسب بدقة عالية، وهذا البعد كائن على نحوٍ لا تتعرّضَ فيه الأرض للحرق والإبادة ولا تحرَمُ من الطاقة المفيدة الّتي توفرها لها الشمس، إن هذه الشمس بقوتها وطاقتها العظيمتين لَمَخْلُوقَة على نَحوٍ يتناسب مع ما تقدمه من فائدة لجميع المخلوقات على وجه الأرض وفي مقدمتهم الإنسان من فائدة وعلى شكلٍ يمكّنها من إرسال أشعتها إلى الأرض بحساب دقيق لملايين السنين.

وهذه الشمس العظيمة التي تحدثنا عنها ما هي إلا واحد من بين ٢٠٠ مليار من نجوم مجرّة درب التبّانة، ومجرّة درب التبّانة ليست إلا واحدة من مئات المليارات من المجرّات التي يمكن رؤيتها بالتلسكوب الحديث وللعبور من طرف مجرّة درب التبّانة إلى طرفها الآخر نحتاج إلى ١٠٠ ألف سنة ضوئية (يقطع الضوء في الثانية الواحدة ٣٠٠,٠٠٠ كم) ولبلوغنا مركز مجرّتنا فيما لو بدأنا من كوكبنا نحتاج إلى قطع مسافة تبلغ ٣٠٠,٠٠٠ تريليون كم.

ميكانيك السوائل:

عندما نتأمل في الطبيعة نرى أن كلاً من سباحة سمكة أو طيران طائر أو تحليق طائرة لا يتحقق إلا في إطار مبادئ معينة لميكانيك



السوائل وهل يا تُرى قد لاحظ أحدنا عند جلوسه على شاطئ نهر أو بحر ليلقي عن كاهله أعباء الحياة أنّ تموجات الماء تحدث ضمن نظام معقّد؟ وما الذي يمكنه استخدام هذه المبادئ بثمرة أكبر أهي الطائرات الصناعية أم الحشرات الطائرة؟.

وأية مبادئ روعيت في تكوين جسم السمكة؟ وما الذي أكسبته أو ستكسبه لنا هذه القوانين التي نشاهدها في الطبيعة في مجال التقنية؟ فهل بإمكاننا توفير الوقود في الطائرات والسفن إن نحن تفحصنا الحوت وطائر السنونو؟ لماذا يتمكن البعوض من الوقوف فوق الماء من غير أن يغرق؟ وما هي الخاصّية الموجودة في ساق العنكبوت والتي تساعدها على القفز المفاجئ؟

ثم إنَّ قلب السمكة وضع بحكمة بالغة في موضع من جسمها يكون الضغط الناشئ معه عند سباحتها أقل ما يكونٍ، وبهذا تكون الحكمة سهولة نبض القلب كلما زادت السرعة بسبب انخفاض الضغط. وأما عينها فمثبَتةٌ في مكان يُسهم في الحفاظ على مستوى الضّغط، وبهذا لا يطرأ أي تغيير في الضغط على عينيها أثناء سباحتها سواء كانت سريعة أو بطيئة.فلقد رأى كلنا الذباب في منزله وهي تقوم بحركاتها السريعة حيث باستطاعتها أن تُسرع وتُبطئ بغتة أوتبقى معلَّقة في الهواء أو تطير معكوسة بعد أن تدور رأساً على عقب وكذا بإمكانها أن تنزل من السقف على جهة الخلف.



إن الشقّ الذي نراه في بعض الحيوانات كذيل سمكة القرش والريش المفلطح الموجود على أجنحة النسر والزعنفة التي على شكل هلال الموجودة على ذيل الحوت كلها تُسهم في الفوائد الهيدروديناميكية أوالأيروديناميه ومما يزيد هذه النتيجة تقوّسُ أجنحة السنونو وسمك التون نحو الخلف واتخاذها شكل هلال ولذا فإن الناس يستفيدون من هذا التصميم في صُنْعِ الطائرات والسفن.

وحسب نتائج التشريح فقد اكتشفت أقنية موجودة على سمك القرش وشكل هذه الأقنية الصغيرة وطولها مثالِيّان يُسهم في تقليل الاحتكاك الحاصل في الماء المالح ويوفّر الطاقة في الحركة، إن آلية التزييت في مفاصل كل من الإنسان والحيوان من الروعة والغرابة بحيث عُجِز عن معرفتها تماماً إلى يومنا هذا مع وجود أنواع التشحيم الثلاثة في التقنية.

هناك أسماك مضادّة للتجمّد تعيش تحت درجة الصفر وأفاعٍ تتحرك في رمال الصحراء الساخنة وأسماك يمكنها تحمّل العطش في بقاع المدّ والجزر، وأما أسماك الفقمة (عجول البحر) فباستطاعتها الغوص مسافة ١٦٠٠ متر، والضغط الموجود في هذا العمق يبلغ ضعف الضغط الذي يمكننا التعرّض إليه بـــ ١٦٠ مرة، وإلى جانب هذا فإن كثيراً من الأمورِ التي تتعلق بحياة أسماك البحار العميقة تحت مثل هذا الضغط الشديد لا يزال مجهولاً لدينا.



إن بعض أفاع البحر تطرح النيتروجين الموجود في الدم من خلال جلدها أثناء غوصها لفترات طويلة في الأعماق وحين تصعد إلى سطح المياه لا تتعرّض للصدمة مع أنّ أكثر الغوّاصين بَراعةً لا يصعدون مِن الأعماق إلى سطح المياه إلا بعد الاستراحة عدة مرات ولوقت طويل.

فكلّ إنسان يتأمّل ويتفكّر في المخلوقات من حوله يعي وجود خالقٍ له عِلم وقدرة غير متناهيتان وأنَّ خلْق الإنسان لم يكن عبثاً بل لهدفٍ معين. وبهذا ووفْق ما توصّلت إليه الأبحاث فقد ثبت الإيمان بوجود ذاتٍ عظيمة قادرة على كل شيء في كل العقائدالبشرية ابتداءً مِن أديان القبائل البدائية ووصولاً إلى الأكثر تحضّراً.

والأدلة على وجود الإله ووحدانيته كثيرةٌ جداً يمكن سرْد بعض الأمثلة التي باستطاعة كلّ أحد رؤيتها، ومِن بينها:

- تخلُّق الجنين وولادتُه ونموُه إلى أن يكون صاحب عقل وإدراك، والفرق بين ماهيّة المواد المتخلّق منها وحاله التي وصل إليها ما بعد الولادة.
- لمعانُ البرق الذي يوقِع الإنسان في الخوف والأمل، وهطولُ الماء من السماء منتظماً، يرافقه بعْث الحياة في التراب الميت.
- ثباتُ السموات والأرض ضِمْن نظام دقيق وخَلْقُ الكائنات غير المُحصاة فيهما.



- هبوب الرياح مبشّرةً بهطول الأمطار وسَوْقُها السُّحب إلى شتّى البقاع وتكوُّن الأنهار والبحار وعَوْمُ السّفن التي بحجم الجبال على سطح الماء حاملةً ثقل آلاف الغروستون (groston) وشَقُّ بواخر عظيمة تبلغ حجم مدنٍ صغيرة طريقاً لها تسلكه في المحيطات تحُطُّ عليها مئات الطائرات.[٢]
- رِزق الكائنات جميعها مِن السماء والأرض.[٣]

يقول مولانا: «يا بني، أيهما يكون مناسباً للعقل التفكير بأن المكتوب من كتابة مؤلِّفٍ أو أنه كتب من تلقاء نفسه؟ أيها الساذج، هل من المنطق المعقول التفكير بأن بنَاء بيت ما تم دون معمار أو بَنَّاء أو أنه وجد من ذاته دون معمار أو بَنّاء؟، أتكون تحفة فنية مصنوعة من قبل رجل أعمى أعسر أو أنها من صنع رجل ذا يد ماهرة وعين مبصرة وحسٍّ عالٍ» (المثنوي، جـ٦، البيت: ٣٦٨ ـ ٣٧١).

«المطرزات والرسوم كلها -سواء كانت تدرك أو لا- هي آثار صانعها، فصانع الفخار يعمل بالفخار، يعجن طينه ويشكله ثم يصنعه، هل الفخار يتوسع ويطول بنفسه من دون صانعه، والخشب مادة النجار يشكله بيده، ولو لم يكن كذلك أكان سيُقطع ويركب إلى خشب آخر؟

٢. الروم، ٢٠ ـ ٤٦؛ الشورى، ٢٩، ٣٢؛ يس، ٣٣ ـ ٤١؛ البقرة، ٢٢. انظر: إبراهيم، ٣٢ ـ ٣٣؛ الروم، ٤٠، ٤٨، ٥٤؛ فاطر، ٩؛ المؤمن،٦١،٦٤، ٧٩ الجاثية، ١٢؛ الطلاق، ١٢.

٣. فاطر، ٣.



أنى لثوب أن يقاس ويحاك من دون أن تمتد إليه يد خياط؟.

أيها العاقل: لو لم يكن إناء الماء بيد الساقي كيف له أن يمتلأ ويفرغ لوحده؟ إنك أيضاً في تعبئة وتفريغ مع كل نفس!

فيا صاحب الحكمة! أنت في يد ذاك الخالق الكبير والصانع العظيم الذي لا مثيل له، فإن أتى عليك حين من الدهر رفعت فيه الستارة عن عينيك وحُلَّت عقد السر ستدرك يومها أن الفن يبدَّل من حال إلى أخرى في يد الصانع» (المثنوي، جـ٦، البيت: ٣٣٣٢ ـ ٣٣٤١).

ثم إنّه مِن المستحيل تفسير ظهور المخلوقات وتحرّكها في إطار مِن الانسجام والنّظام الدقيق على أنّه محض صُدفة؛ يقول الدكتور إدْوين كونْجلين: «إنَّ دعوى أنّ الحياة وجدت مصادفة كمَن يدّعي ظهور موسوعة عظيمة ومدهشة إثر انفجار حصل في مَطبعةٍ ما»[٤]

٢. الإنسان والدين

يُعرف الدّين بأنه القانون والنّظام والطّريق المنظّم للعلاقات بين الإنسان وخالقه وباقي المخلوقات وعلى هذا التعريف يكون الدين مشتملاً على توجيهٍ مِن الله تعالى للإنسان يوضّح له فيه الطريق التي يجب عليه اتباعها في حياته قبل الموت، ويضع الدينُ

٤. الأدلة على الله (The Evidence of God)، ص. ١٧٤؛ البروفسور. د. وحيد الدين خان، الإسلام يتحدى، اسطنبول، ١٩٩٦ ص: ١٢٩.



بعض القواعد للإنسان حتى يعيش في هذه الدنيا مِن غير أنْ يُضِرَّ بأحد وأنْ يلتزم بِمَا لَهُ وما عليه ويُمضي هذه الحياة الدنيوية القصيرة على نحو لا يعرِّض فيه حياته الأخروية إلى الخطر والهلاك.

لقد خلق الله تعالى أنواعاً شتى من المخلوقات، ولكنّ الإنسان يختلف عنها في المكانة والمرتبة حيث أكرمه بصفات وقابليات متفوقة ليست موجودة فيمَا عداه كالعقل والإرادة والعلم والإدراك والسلطان والتملك والجبروت ولكنها كسلاح ذو حدّين.

وفي حال استخدمت الناحية الإيجابية لهذه الصفات فإنَّها تأتي على الكائنات بنظام متمكن وخير وفير وبركة كثيرة للإنسانية. وأما فيما لو استخدمت الناحية السلبية لهذه الصفات فإنّ نتائجها من الشر تكون بما لا يخطر على البال متسببة باضطرابات مُخيفة وكذا تفتح الطريق أمام ظلمٍ يبقِي العقول في دهشة وحيرة وتثمر حروباً مدمّرة.

ولذا فلا بد من قوة أخرى توجّه الصفات ومجموعة القابليات هذه وتضعها في إطارها الصحيح وتلك القوة هي الدين الحق ومن هنا كانت حاجة الإنسانية كلها إلى أن تدين لبارئها ﷻ بالاعتقاد الجازم بوجوده ووحدانيته وأن تدين له بالعبودية المطلقة في كل شؤونه وأطوار حياته، أي إن الله ﷻ ليس هو المحتاج إلى شيء من



هذه الدينونة له أو التمسك بأمره، ولكن سعادتنا الدنيوية -فضلاً عن الأخروية- هي التي تحوجنا وتضطرنا إلى هذه الدنيوية.[٥]

لقد أفادت جميع الشرائع السماوية أنْ على الإنسان معرفة ربه وأنه خُلِق لكي يكون عبداً لربه.[٦]

ثم إن الأنبياء هم المكلفون بإبلاغ الناس هذا الدين ويصف الإسلام جميع الأنبياء والرسل بالصدق ويجعل الإيمان بهم من شروطه ووفق عقيدة الإسلام، فهناك تكامل بين الأنبياء كلهم، فكل نبي متأخر يقوم بتصديق المبعوثين مِن قبله ويبشر بالمرسلين مِن بعده. مما يعني أن من يصدق نبوة محمد ﷺ يكون قد صدق نبوة جميع الأنبياء والمرسلين من قبله، قال حاطِبُ بن أبي بلتعة رضي الله عنه رسولُ رسولِ الله ﷺ إلى المقوقس حاكم الاسكندرية:

«إنه قد كان قبلك رجل يزعم أنه الرب الأعلى فأخذه الله نكال الآخرة والأولى ، فانتقم به ثم انتقم منه ، فاعتبر بغيرك ولا يعتبر غيرك بك ، قال : هات ، قال : إن لنا دينا لن ندعه إلا لما هو خير منه وهو الإسلام الكافي به الله ما سواه ، إن هذا النبي محمداً ﷺ، دعا الناس فكان أشدهم عليه قريش وأعداهم له اليهود وأقربهم منه

٥. انظر: الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي، كبرى اليقينيات الكونية، دارالفكر، دمشق ١٩٩٧م، ص، ٦٤-٦٩.

٦. سفر الخروج، ٢٠: ٢ ـ ٣؛ سفر التثنية، ٦: ٤ ـ ٥؛ سفر متى، ٤: ١٠؛ وظائف الرسل، ١٧ : ٢٦ ـ ٢٨؛ القرآن الكريم، الذاريات، ٥٦.



النصارى، ولعمري ما بشارة موسى عليه السلام بعيسى عليه السلام، إلا كبشارة عيسى بمحمد ﷺ، وما دعاؤنا إياك إلى القرآن إلا كدعائك أهل التوارة إلى الإنجيل ، وكل نبي أدرك قوما فهم من أمته ، فالحق عليهم أن يطيعوه ، فأنت ممن أدركه هذا النبي ، ولسنا ننهاك عن دين المسيح ، ولكنا نأمرك به»(٧)

يبيّن الأستاذ الدكتور تيموثي جيانوتي العضو في جامعة محافظة بنسيلفانيا أن الذي يختار الإسلام ديناً لا يعني أنه محا دينه النصراني القديم بل إنَّ الدين النصراني ما هو إلا فترة تحضير للمرور إلى الإسلام وأن الإسلام هو الدين الأشمل الذي يضم مقاصد كل من المسيحية والإسلام وقال:

«إن غاية الإسلام أن يجعل جميع البشرية لا فئة معينة منها شرفاءَ ومكرَّمين عند الله تعالى»

يوضح الحديث الشريف أن الأنبياء هم إخوة من أب واحد (٨) ويبين أن الأديان السماوية جميعها مشتركة في المبادئ الأساسية أي

---

٧. انظر: السهيلي، الروض الأنف، بيروت ١٤٢١، جـ ٧، ص ٥١٤؛ ابن كثير، البداية والنهاية، القاهرة ١٩٩٣، ٤، ٢٦٦ ـ ٢٦٧؛ ابن حجر، الإصابة، بيروت، ١٣٢٨، ٣، ٥٣٠، ٥٣١.

٨. قال النبي ﷺ:

"أَنَا أَوْلَى النَّاسِ بِابْنِ مَرْيَمَ، وَالأَنْبِيَاءُ أَوْلاَدُ عَلاَّتٍ، لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ نَبِيٌّ" (البخاري، الأنبياء، ٤٨؛ مسلم، الفضائل، ١٤٥)



أن الدين الحق هو نفسه من أول نبي وحتى آخِر نبي لم يختلف في أساسيات الإيمان وفي مبادئ الأخلاق؛ عدا بعض الاختلافات الحاصلة في شكل العبادات وأحكام المعاملات.

وبما أن الدين الحق واحد فمن المحقق وجود تشابه بين الأديان الإلهية على سبيل المثال: الإسلام يأمر بالصلاة وهناك عبارات تتكلم عن أركان الصلاة في الكتاب المقدس:

«هلمّوا لنسجد ولنصلْ إلى الركوع ولنركع أمام الرب الذي خلقنا» (المزامير، ٩٥: ٦)

«وكبّوا على وجوههم مع موسى وهرون» (سفر الأعداد، ١٦: ٢٠-٢٢)

«وسارع موسى إلى السجود والعبادة» (سفر الخروج، ٣٤: ٨)

«ويكبّ عيسى إلى الأرض ... ودعى» (سفر متى، ٢٦: ٣٩)

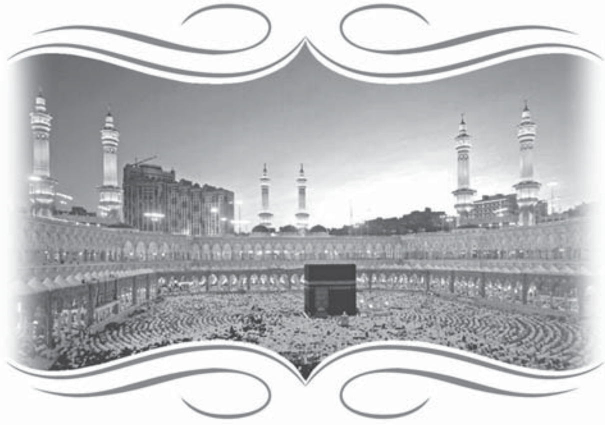
«وكبّ الحواريون إلى الأرض على وجوههم» (سفر متى، ١٧: ٦)





القسم الأول

خصائص الإسلام الرئيسية



١ . يستند أساساً على التوحيد

إنّ الشرائع السماوية كلها تدعو إلى التوحيد أي أنّ الله واحد لا مثيل ولا نظير له وقد بدأ سيدنا إبراهيم عليه السلام في الدعوة إلى التوحيد بأبيه آزر.[١]

إن المبدأ الأساسي الذي أكدت اليهودية عليه بشدة هو وحدانية الخالق، ودعا الإنسانُ الأوّل وأولاده ونوح[٢] وإبراهيم وإسحاق ويعقوب ويوسف عليهم السلام إلى عبادة الله الواحد حسبما ورد في التوراة وإنّ أكثر ما أكدت عليه الأوامر العشر الموجهة إلى موسى عليه السلام ومواضع أخرى في التوراة هو موضوع وحدانية الله عزّ وجلّ.[٣]

وإنّ الزبور المنزل على داود عليه السلام يدعو إلى الإله الواحد، وكذلك عيسى عليه السلام أكّد على أنَّ الأمر الأول في الشريعة هو وحدانية الله عزّ وجلّ.[٤]

١. القرآن الكريم، مريم، ٤٢ ـ٤٧.
٢. سفر التكوين، ١: ٢٦ ـ ٢٨، ٤: ٢٦، ٦: ٩.
٣ سفر الخروج، ٢٠: ٢ ـ ٣؛ سفر التثنية، ٦: ٤ ـ ٥ .
٤. ماركوس، ١٢: ٢٨ ـ ٢٩.



إن التشبيهات المفرِطة في الديانة اليهودية فتحت الطريق إلى تصوير الإله على هيئة إنسان، والحب المبالغ فيه في الديانة المسيحية أدى إلى تأليه عيسى عليه السلام، وبالتالي تَرَتَّب عليه نزول التوحيد إلى الثالوث. في حين أن الإسلام أزال التشويش الحاصل بمرور الزمن في معنى التوحيد ودعى اليهود والنصارى إلى الاندماج في التوحيد.[٥]

إن الأدلة العقلية والكونية تُظهر وحدانية الخالق، يقول الله تعالى في القرآن الكريم:

﴿مَا اتَّخَذَ اللهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ اِلَهٍ اِذاً لَذَهَبَ كُلُّ اِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (المؤمنون، ٩١)

﴿لَوْ كَانَ فِيْهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهِ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (الأنبياء، ٢٢)

فلا بدّ مِن الإيمان بوحدانية الخالق؛ لأنّ وجود أكثر من خالق

---

٥. آل عمران، ٦٤. إن المسمّى بولس هو مَن وضع عقيدة الثالوث لأول مرة. وعندما هُدّد بالقتل مِنْ قِبل اليهود، فرَّ إلى الشمال وبدأ بتبليغ النصرانية المستندة إلى الثالوث. وعقيدة الثالوث هذه التي رُدَّت مِن طرف الكثير من المسيحين جُعلت فيما بعد ديناً رسمياً للمسيحين مِن قِبل حكام البيزنطة المتأثرين بديانة اليونان المتعددة الآلهة. يشرح فريد ريد صاحب كتاب Shattered İmages ـالصور الممزقةـ بالتفصيل كيفية تخريب وتحوّل عقيدة التوحيد في المسيحية إلى الثالوث.



أو إله يقتضي ظهور صفات نقص كالعجز وكون الإله مخلوق من قبل غيره من الآلهة.

أكبر الكبائر في الدين الإسلامي عدم معرفة الله ﷻ وجعل شريك له في ذاته وصفاته وأفعاله وإعطاء جزء من الألوهية لغيره، والإثم الذي يترتب على الشرك هو أكبر الكبائر. لقد وصف الله تعالى الشرك بقوله:

﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾، ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدِ افْتَرَى اِثْماً عَظِيْماً﴾ [٦].

لقد بين الله تعالى أنه يغفر من الذنوب جميعِها ما يشاء إلّا مَنْ أشرك به ومات مِن دون توبة فلن يُغفر له. [٧]

يقول الله تعالى:

﴿وَلَقَدْ اُوْحِيَ اِلَيْكَ وَاِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ اَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُوْنَنَّ مِنَ الْخَاسِرِيْنَ﴾ (الزمر، ٦٥)

إنّ التّخلّي عن الشرك والتوجّه إلى التوحيد هو المنْفذ الوحيد للتخلّص مِن إثم الشّرك.

---

٦. لقمان، ١٣؛ النساء، ٤٨

٧. النساء، ٤٨، ١١٦.



٢. دين فطري لا يخالفه العقل

إن الإسلام الذي يخاطب الإنسانية جمعاء لا يضع قواعده وأسسه الرئيسية بما يتناسب وميزاتٍ عرضيةٍ زائلةٍ أو ناقصةٍ لقوم ما وإنما يسنّها حسب الميول والاحتياجات الأصليةً والفطريةً الآتيةً من أصل الخلق الموجودة في البشرية ولذا فإن الإسلام دين فطرة لا يبلى. وعقائده مبنية على العقل والبراهين الواضحة لا على خوارق العادات. مما يعني أنه لايتناقض والحقائق العلمية أبداً. وعند التدقيق في الأوامر المتعلقة بالعبادات والمعاملات يعلمُ مقدار مطابقة الأحكام لفطرة الإنسان وعقله.

وباعتبار العقل أهم خاصية تفرق الإنسان عن سائر المخلوقات فإن القرآن الكريم يؤكد على التفكير والتأمل فيدعو القرآنُ الكريم الإنسانَ في حوالي ٧٥٠ آية إلى التفكير والبحث واستخدام العقل بأكمل وجه.

عندما قال الناس غير المؤمنين بالنبي ﷺ أرنا المعجزات كي نؤمن بربك ونصدق أنَّ نبوتك مِنْ عند الله لم يُرْضِ طلبُهم ذلكَ الله تعالى بل حثهم علىَ التفكير في خلْق السموات والأرض والتأمّل عوضاً عن طلب المعجزات. ولأن الإسلام أعطى العقل هذه الأهمية منع ما يَستره ويُذهبُه مِنَ المُسْكِرات والمخدِّرات، لأن بقاء الإنسان صاحياً خيرٌ له، وإنه لا فائدة في كونه سكرانَ غافلاً.



والثمرة المُجْنَاة من كون الإسلام ديناً فطرياً أنه يضع الأحكام الواقعية على الدوام فهو خالٍ عن أحكام يتعذر تطبيقها وأوامر تجرّ الناس إلى المشقة وتشقّ على الفطرة على سبيل المثال: إن المسلم الموكّل بتبليغ الإسلام ليس عليه إلا أنْ يبلّغه بالأسلوب الحسن فما من أمرٍ يجبره على جعل الناس كلهم مسلمين مهما يكن.

على سبيل المثال: إذا لم يجد الإنسانُ ماءً يتوضأُ به أو لم يستطع أن يستعمل الماء لمرض أو غيره يتيمم، وإذا لم يستطع أن يصلي قائماً صلّى قاعداً أو مضطجعاً أو مومياً، وإذا لم يستطع الصوم يقضيه إن استطاع أو يدفع فدية، والزكاة والحج من العبادات المالية تفرض على الأغنياء، فالمسلم القائم بتبليغ الإسلام عليه أن يبين الإسلام بأسلوب حسن، ولا يجب عليه أن يجعل الناس كلهم مسلمين رغماً عنهم.

٣. ليس لأحد التدخل بين الإنسان وربه؛ فلا رهبانية في الإسلام

يقول علماء الإسلام: «تبْلُغ الطرقُ المؤدية إلى الله عددَ نَفَسِ المخلوقات» أي أنَّ مِنْ حق كل إنسان إقامة اتّصال مع الله تعالى مباشرة، وباستطاعة كل إنسان التوجّه إلى الله بعباداته وأدعيته وطلب المغفرة منه فإنْ أقبل على الله بصميم قلبه وجدَه معه.

يحثّ الله تعالى عباده على الدعاء والتوبة دائماً ويخبرهم بأن رحمته



واسعة ولذا يجيب الدعاء ويقبل التوبة منهم واستجابة الدعاء والعفو عن المعاصي بيد الله ﷻ فقط لأنه الوحيد صاحب القدرة فليس بإمكان أي مخلوق استخدام السلطات الخاصة بالله تعالى، فمن الشرك جعل الصفات الخاصة بالله تعالى لأيٍّ من مخلوقاته.

إنَّ مواضيع العقيدة ذات جِدِّية وحساسية لأقصى الحدود وإن فكرة التصرّف فيها كنسبةِ صفةٍ خاصةٍ بالله تعالى إلى عباده أو محاولةِ حصرها وتقييدها فكرةٌ بالغةُ الخطورة وجالبة لغضب الله تعالى وقد نُقلَ عن رسول الله ﷺ إلينا حديثاً بهذا الشأن:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

"كان رجلان في بني إسرائيل متواخيين فَكَانَ أحدهما يذنب والآخر مجتهد في العبادة، فكان لا يزال المجتهد يرى الآخر على الذنب فيقول: أقصر، فوجده يوماً على ذنب فقال له أقصر، فقال: خَلِّنِي وَرَبِّي، أَبُعِثْتَ عليّ رقيبا؟ فقال: والله لا يغفر الله لك أو لا يدخلك الله الجنة، فقبض أرواحهما، فاجتمعا عند رب العالمين، فقال لهذا المجتهد: أَكُنْتَ بي عالماً أو كنت على ما في يدي قادراً؟ وقال للمذنب: اذهب فادخل الجنة برحمتي، وقال للآخر: اذهبوا به إلى النار"

قال أبو هريرة والذي نفسي بيده لتكلم بكلمة أوبقت دنياه وآخرته. (أبو داود، الأدب، ٤٣/ ٤٩٠١؛ أحمد، جـ ٢، ص ٣٢٣؛ مسلم، البرّ، ١٣٧)



وينبغي ألا نفهمَ من هذا الحديث أنَّ الإنسان في ارتكاب المعاصي يكون معذوراً.

إذاً يفترض بنا الانتباه إلى مدى خطورة أبعاد التكلّم بجهالة في حقِّ الله وتكوين معتقدات خاطئة عن الله تعالى.

كان الرسول ﷺ في حالٍ صعب جداً في غزوة أحد حيث تفرّق أصحابه وجُرِح وجهه وكُسِرت رباعيته يوم أحد، وشج في رأسه، فجعل يَسْلُتُ الدم عنه ويقول:

"كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ شَجُّوا نَبِيَّهُمْ، وَكَسَرُوا رَبَاعِيَتَهُ، وَهُوَ يَدْعُوهُمْ إِلَى اللهِ؟"

فأنزل الله عزّ وجلّ:

﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ (آل عمران، ١٢٨) (البخاري، المغازي، ٢١؛ مسلم، الجهاد والسير، ١٠٤؛ الترمذي، التفسير، ٣/ ٣٠٠٢-٣٠٠٣)

وعن الأسود بن سريع، أن النبي ﷺ أتي بأسير فقال:

«اللّهم إني أتوب إليك، ولا أتوب إلى محمد»، فقال النبي ﷺ:

"عَرَفَ الْحَقَّ لِأَهْلِهِ" (أحمد، مسند، ٣، ٤٣٥؛ الحاكم، المستدرك، ٤، ٢٨٤/ ٧٦٥٤)

ومن اللافت للنظر قول سيدنا عيسى عليه السلام:



«...ولا تنظروا في ذنوب الناس كأنكم أرباب، وانظروا فيها كأنكم عبيد...»[8] (الموطّأ، الكلام ٨/ ٢٠٧٥؛ ابن أبي شيبة، ٦، ٣٤٠ / ٣١٨٧٩)

إنَّ كلّاً مِن الدعاء والتوبة والعبادة لا يَلزم أداؤها بوجود رجل دين كما هو الحال في بعض الأديان الأخرى، وعلى كل مسلم أن يحصِّل معرفة كافية بالدين لنفسه، فعندما يجتمع المسلمون لأداء الصلاة يقدّمون للإمامة أكثرهم معرفة وفضلاً وتنبني وظيفة علماء المسلمين على توضيح أسس الدين وتعليمها وإنارة عقول الناس بتبيين الطريق السَّوي من خلال الوعظ والإرشاد والنصح فقط لا غير فليست لهم سلطة الوَساطة بين الله والعبد بقَبول توبة أحدهم أو دعاءه.

٤ . يحفظ التوازن بين الدنيا والآخرة وبين المادّة والمعنى

يعطي الإسلامُ الاعتدال والتوازن أهمية كبيرة فلا يَهتم بجانب على حساب الآخر وبما أن كلا الطرفين مخلوق من قبل الله تعالى والناس في حاجة إليهما فلا يكون من السليم إهمال أحدهما بالاهتمام بالآخر، بل يلزم إعطاء كل شيء حقه مع الاهتمام به قدر ما يستحق

٨. يُرِيدُ أَنَّ الْعَبْدَ لَا يَنْظُرُ فِي ذُنُوبِ غَيْرِهِ؛ لِأَنَّهُ لَا يُثِيبُ عَلَى حَسَنِهَا وَلَا يُعَاقِبُ عَلَى سَيِّئِهَا وَإِنَّمَا يَنْظُرُ فِيهَا رَبُّهُ الَّذِي أَمَرَهُ وَنَهَاهُ فَيُثِيبُهُ عَلَى حَسَنِهَا وَيُعَاقِبُهُ عَلَى سَيِّئِهَا وَأَمَّا الْعَبْدُ فَإِنَّهُ يَنْظُرُ فِي عُيُوبِ نَفْسِهِ لِيُصْلِحَ مِنْهَا مَا فَسَدَ وَيَتُوبُ مِنْهَا عَمَّا فَرَّطَ (الباجي، المُنتقى شرح الموطأ، مصر ١٣٣٢، ٧، ٣١١)



وبهذا المنظور يظهر أن الدنيا رأس مال الفوز بالآخرة وهي مِن هذه الجهة تُعدُّ نعمة قيّمة جداً علينا استخدامها في رضا الله تعالى وأما الآخرة فهي الغاية الرئيسية فلا ننسى ذلك ولا نلتفت إلى وجهات النظر التي تدعو إلى الإقبال على الدنيا فقط ولا إلى رأي الرهبانية المتوجهة إلى الآخرة دون الدنيا في تلبية احتياجات الإنسان، إذ لا نضحّي بإحداها في مقابل الآخر، بل لا بدّ من تنظيمهما ضمن إطار من التوازن الدقيق والتكامل.

ومن الأمثلة على هذا ما يلي:

إعلان النبي ﷺ في الأيام الأولى له في المدينة الأخوّة بين المسلمين حيث آخى بين كلِّ مَن هاجر إلى المدينة مِن مكة وكلِّ أنصاري في المدينة ومؤسسة الأخوّة هذه أسهمت في تمكين المسلمين من الفوز بالدنيا والآخرة مع بعضهم البعض إلى جانب فوائدها الجمَّة فكان الصحابة حين يصبحون يغدو أحدهم إلى عمله والآخر إلى رسول الله ﷺ فالذي ذهب إلى رسول الله ﷺ يقرأ على جاره ما أخذه عن الرسول عليه الصلاة والسلام مِن الآيات والأحاديث مساءً وهكذا بالتناوب. (البخاري، المظالم، ٢٥؛ مسلم، الطهارة، ١٧)

وبالروح والبدن كلاهما تتكوّن وجهتي الإنسان، فحتى لو كانت الروح أصلاً فإن المادة هي مركبها، فعند توحدهما يمكن القيام بشيء ما وبناء عليه فمِن غير الصواب الاهتمام بالروح وترك



البدن يبلى فعلى ما أخبر به النبي ﷺ إنَّ مِن بين أول الأساسيّات التي سيُسأل عنها المرء يوم القيامة عن جِسْمِهِ فيما أبلاه.[٩]

لقد أمر الإسلام بالتوازن حتى في العبادات كالصلاة والصيام والزكاة ولم يحبّذ نَمط حياةٍ تكثر فيها العبادة إلى حدٍّ يبعث بالملل [١٠]

فعلى سبيل المثال يقول الله تعالى في شأن الإنفاق:

﴿وَالَّذِيْنَ اِذَا اَنْفَقُوا لَم يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامَاً﴾

(الفرقان، ٦٧)

لا يميل المسلمون في أي أساس إلى الإفراط بل يتعقبون الاعتدال في كل شيء ولذا يقول الحق تعالى في أمة سيدنا محمد ﷺ:

﴿وكَذلِكَ جَعَلْنَاكُم أُمَّةً وَسَطَاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيْداً﴾ (البقرة، ١٤٣)

٥. يحثّ على العلم

لَمْ يحدث أنْ اختلف أو تناقضَ الإسلام مع العلم حتى اليوم، بل إنّ الإسلام يحثّ على العلم حثاً شديداً، ويجْعَلُ العلمَ فريضة

٩. انظر: الترمذي، القيامة، ١ / ٢٤١٧ .

١٠. انظر: البخاري، الصوم ٥٥، ٥٦، ٥٧، التهجد ٧، الأنبياء ٣٧، النكاح ١، ٨٩؛ مسلم، الصيام ١٨١ ـ ١٩٣؛ أبو داود، الصوم، ٥٥ / ٢٤٢٨



على كل مسلم[11] ومن طرف آخر فالاكتشافات العلمية لم تكذب قط الأحكام الإسلامية بل على العكس كانت تصدقها. ولم تكذّبها؟ فالعلم لا يعدو محاولة اكتشاف القواعد الموضوعة مِنْ الله تعالى للكائنات التي خلقها بعد البحث عنها والدراسة حولها والإسلام دين سماويٌّ منزّلٌ مِن الله ﷻ وهو محفوظ كما أُنزل إلى يوم القيامة دون تحريف وتبديل وعليه فمنبع الإسلام والعلم واحد أي: منبع واحد ونافورتان مختلفتان وكلما ظهرت الاكتشافات العلمية وتطور العلم سيُدرك الناس مدى عظمة وقدرة وحكمة الله تعالى وسيزيد بالمقابل الإيمان بالله تعالى ولذا فالعلم جزء لايتجزأ من الإسلام.

هناك كثير من أسماء الله تعالى الحسنى تفيد بأنه تعالى عالم بالأمور جميعها علنها وسرّها وعلى العبد أنْ يحرص على أخذِ نصيب مِن صفة الله تعالى هذه. ومن ناحية أخرى توجد آيات كريمة وأحاديث شريفة كثيرة تحضّ على العلم، لنعرض قسماً منها:

كان أول ما خاطب به الله تعالى نبيه ﷺ أمر "اقرأ" ومِن ثمَّ حثَّ المؤمنين على البحث في الخَلْق بجذب انتباههم إلى خَلْق الإنسان ويلي ذلك تكرار أمْر "اقرأ" والإشارة إلى فضل الله تعالى على الإنسان بتعليمه بالقلم ما لم يعلم وإكرامه لعبيده القارئين والباحثين. (العلق ١ – ٥)

١١. انظر: ابن ماجه، المقدمة، ١٧.



وفي الآيات المنزّلة بعد ذلك أقسم الله تعالى بالقلم وما يسطره وبالكتاب، وقد ذكرتْ كلمة الكتاب في كثير مِن المواضع، وتكلم بالثناء على العلم والعلماء والتّعقّل والتفكر والتّدبر[١٢] ولذا فإن أموراً كالقراءة والكتابة والتربية والتعليم والبحث والتفكر وتنفيذ المنطق أضحت الطابع الرئيسي للإسلام.

يقول الله تعالى:

﴿شَهِدَ اللهُ اَنَّهُ لَا اِلَهَ اِلَّا هُوَ وَالْمَلَئِكَةُ وَاُوْلُوا العِلْم قَائِماً بِالْقِسْطِ لَا اِلَهَ اِلَّا هُوَ العَزِيْزُ الْحَكِيمُ﴾ (آل عمران، ١٨)

ذُكر العلماءُ الحقيقيون في هذه الآية مع الله تعالى وملائكته، وما مِن شرفٍ يضاهي هذا.

﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِى عِلْماً﴾ (طه، ١١٤)

﴿فَسْئَلُوا اَهْلَ الذِّكْرِ اِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (الأنبياء، ٧)

﴿وَتِلْكَ الْاَمْثَالِ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وِمَا يَعْقِلُهَا اِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ (العنكبوت، ٤٣)

﴿يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ اَمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ اُوْتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ (المجادلة، ١١)

١٢. القلم، ١؛ الزخرف، ٢؛ الدخان، ٢؛ لقمان، ٢٧؛ النساء، ١٢٧؛ الزمر، ١؛ المؤمن، ٢، ٦٧؛ البقرة، ٢، ١٦٤، ٢٦٦؛ آل عمران، ١١٨؛ الأنعام، ٣٢، ٥٠؛ الروم، ٨؛ يس، ٦٨؛ الجاثية، ١٣ ...



وعن أبي الدرداء ﵁ قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ:

"مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ اللهُ بِهِ طَرِيقًا مِنْ طُرُقِ الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضًا لِطَالِبِ الْعِلْمِ، وَإِنَّ الْعَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ، وَمَنْ فِي الْأَرْضِ، وَالْحِيتَانُ فِي جَوْفِ الْمَاءِ، وَإِنَّ فَضْلَ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ، كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ، وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، وَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا، وَلَا دِرْهَمًا وَرَّثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ" (أبو داود، العلم، ١/ ٣٦٤١؛ الترمذي، العلم، ١٩/ ٢٦٨٢؛ البخاري، العلم، ١٠، ابن ماجة، المقدمة، ١٧)

وعن أبي هريرة ﵁، أن النبي ﷺ قال:

"أَفْضَلُ الصَّدَقَةِ أَنْ يَتَعَلَّمَ الْمَرْءُ الْمُسْلِمُ عِلْمًا ثُمَّ يُعَلِّمَهُ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ" (ابن ماجه، المقدمة، ٢٠)

وعن أنس ﵁، قال: قال رسول الله ﷺ:

"سَبْعَةٌ يَجْرِي لِلْعَبْدِ أَجْرُهُنَّ وَهُوَ فِي قَبْرِهِ بَعْدَ مَوْتِهِ: مَنْ عَلَّمَ عِلْمًا، أَوْ كَرَى نَهَرًا، أَوْ حَفَرَ بِئْرًا، أَوْ غَرَسَ نَخْلًا، أَوْ بَنَى مَسْجِدًا، أَوْ وَرَّثَ مُصْحَفًا، أَوْ تَرَكَ وَلَدًا يَسْتَغْفِرُ لَهُ بَعْدَ مَوْتِهِ".



قال البيهقي رحمه الله: «ومنها أن يتصدق بأحب أمواله إليه، وأنفسها عنده» (البيهقي، شعب الإيمان، ٥، ١٢٢؛ الهيثمي، ١، ١٦٧)

"لَنْ يَشْبَعَ لمُؤْمِنُ مِنْ خَيْرٍ (أي علم) يَسْمَعُهُ حَتَّى يَكُونَ مُنْتَهَاهُ الجَنَّةُ" (الترمذي، العلم، ١٩/ ٢٦٨٦)

ووظّف رسول الله ﷺ الصحابة الذين يُجيدون القراءة والكتابة في تعليم مسلمي المدينة الكتابة ومنهم عبد الله بن سعيد وعبادة بن الصامت وحفصة بنت عمر وشفاء بنت عبد الله.

يقول الفضيل بن عياض أحد علماء المسلمين العظماء:

«عالمٌ عاملٌ معلمٌ يُدعى كبيراً في ملكوت السموات» (الترمذي، العلم، ١٩/ ٢٦٨٥)

ولهذا فقد التفّ المسلمون حول الأبحاث العلمية وحرصوا عليها كحرصهم على العبادة وارتفع معدل الكتابة والقراءة بينهم سريعاً، وسافر الصحابة الكرام والتابعين لهم من بعدهم وقضوا سنوات في الغربة في سبيل العلم.

يقول عكرمة مولى سيدنا ابن عباس:

«قال لي ابن عباس ولابنه علي: انطلقا إلى أبي سعيد فاسمعا من حديثه، فانطلقنا فإذا هو في حائط يصلحه، فأخذ رداءه فاحتبى، ثم أنشأ يحدثنا ...» (البخاري، الصلاة ٦٣/ ٤٤٧، الجهاد ١٧)



عن شرحبيل أبي سعد ﵁، قال: دعا الحسن ﵁ (حفيدُ رسول الله ﷺ)، بنيه، وبني أخيه، فقال:

«يا بني، وبني أخي؛ إنكم صغار قوم، يوشك أن تكونوا كبار آخرين، فتعلموا العلم، فمن لم يستطع منكم أن يرويه – أو قال: يحفظه – فليكتبه، وليضعه في بيته» (الدارمي، المقدمة، ٤٣/ ٥٢٨)

لقد بنى المسلمون في كل مدينة فتحوها وأنشؤوها المدارسَ والمكتباتِ والحماماتِ ومؤسسات توزيع الطعام على المحتاجين بقرب المساجد، وكانت علومُ الطِّبِّ والجغرافيا والرياضيات والفلك تدرسُ إلى جانب العلوم الدينية في هذه المدارس، فلابد من معرفة علوم كالفلك والجغرافيا لتعيين القبلة والوقت في فريضة الصلاة والصيام، وتعيينُ مقدار الزكاة وتقسيمُ الميراث يحتاجان لحساب دقيق، وعلمُ التاريخ والجغرافيا يُستعان بهما في البحث في شأن الأقوام المذكورين في القرآن الكريم، ولذا اشتغل المسلمون بكل علم فيه فائدة.(١٣)

خدمة المسلمين لِلْعِلِمْ

لقد ظهرت عبر التاريخ حضارات متنوعة في أماكن مختلفة أثّر كل واحدة منها على الأخرى وورثت العلم عن سابقتها ومن ثم

١٣. البروفسور د. م. حميد الله، مدخل إلى الإسلام، ص ٢٤٣ ـ ٢٦٤ .



طوّرت فيه وبهذا أتيحت للعلم فرصة التقدم أكثر بخدمة الثقافات المختلفة والحضارات، ثم إن المسلمين أخذوا علماً من الحضارات السابقة وأوضحوا ذلك بكل تواضع، وعن تطويرهم للمعارف التي ألحقت إسهامات مهمة في العلم والحضارة.

يقول روبرت بريفاولت: «إن كل ميدان سجلت فيه أوروبا تقدماً كان للمسلمين فيه نصيب كبير يمكننا لمسه»[١٤].

والعامل وراء مثابرة المسلمين في هذا الطريق هو حديث النّبي ﷺ:

"الكَلِمَةُ الحِكْمَةُ ضَالَّةُ المُؤْمِنِ، فَحَيْثُ وَجَدَهَا فَهُوَ أَحَقُّ بِهَا"[١٥]

والمسلمون الذين تتم تنشئتهم منذ نعومة أظافرهم على هذا المعنى يتنافسون بين بعضهم البعض في جمع ميراث أسلافهم من الناس وبعد مدة وصلت أهم الكتب في العالم وتوافد أعظم العلماء على بلاد المسلمين، لقد ترجم المسلمون أولاً هذه الكتب إلى العربية مصوبين الصحيح فيها ومصححين الأخطاء الموجودة، ومِن ثَمَّ صنفوا كتباً متقدمة في المستوى عن سابقتها، على سبيل المثال: كتاب التشريح لغالين المُعَدُّ أكبر كتاب في الطب حتى عصرهم لم يُقبل محتواه كما هو بعد ترجمته مِن قِبل علماء المسلمين بل دُقق وأزيلت منه كل الأقسام غير الصحيحة بعدها لاقى القبول ثم طُوِّر.

١٤. Robert Briffault, The Making of Humanity ، ١٩٠.

١٥. الترمذي، العلم، ١٩ / ٢٦٨٧؛ ابن ماجة، الزهد، ١٥.



يقول أمير شلبي صاحب كتاب أنموذج الطب:

«إنه ليس من الصواب نقل مؤلِّفٍ آثار من سبقه كما هي دون إضافة شيء منه عليها، بل عليه وضع نتائج حصلها من تجاربه الذاتية. على سبيل المثال: إن كمية علاج نبتة المحمودية تتغير باختلاف الإقليم أو المكان الذي تنبت فيه هذه العشبة، فمن غير السليم استخدامه بالكمية المعينة في كتاب القانون لابن سينا، ومن جهة أخرى فإعطاء الكمية ذاتها مِن نبتة المحمودية الأنطاكية ومحمودية البصرة في اسطنبول تفيد ظهور نتائج غير سليمة».

وكما يتضح فإنَّ صِلات المسلمين بالعلم لم تكن صُدفة بل هي ممتلئة بالوعي ومُثْمِرة إلى أقصى الحدود.

لقد بدأ المسلمون أبحاثهم في علم الفلك مع أحمد النهاوندي في سنة ٨٠٠ للميلاد وبعد ذلك أنشؤوا مراصد كبيرة وطوَّروا أُسْطُرْلاباً لمقياس بُعد الشمس والقمر والنجوم والكواكب الأخرى والزمان وطول ارتفاع الجبال وعمق الآبار. ووفق الأبحاث الحديثة أُعدَّت قائمة جديدة للنجوم وصحِّحت الثوابت القديمة؛ حيث اكتشف الكثير من النجوم الجديدة إلى جانب قياس ميل مدار الشمس من جديد مع مراقبة حركة الشمس ذات الأهمية وربطها بحركة الكواكب الثابتة كما تحققت الاكتشافات الأخرى ذات الأهمية المتعلقة بحركة الكواكب.



ولقد استخدم المسلمون أساليب جديدة في تطبيق علم الرياضيات على الفلك حيث أمكن الوصول إلى حسابات أكثر دقة باستخدام حساب علم المثلثات. ونستطيع أن نقول: إنهم وصلوا إلى الكمال بالمقارنة مع ما سبق الوصول إليه مِن قَبْلُ في خصوص حركة الكواكب[١٦].

إن للمسلمين باعاً كبيراً في تقدم الكثير من العلوم كعلم الأحياء والمعادن والنبات والبيولوجيا والحساب والفيزياء والكيمياء والطب والصيدلة، على سبيل المثال: فابن سينا (٩٨٠–١٠٣٧) عالم كبير أحد رواد العلم المتقدمين على ذوي العلم في أوروبا باكتشافاته في مختلف المواضيع فكتابه القانون في الطب المصنف في علم الطب عُين ليدرّس في جامعات أوروبا طيلة ٦٠٠ سنة، وأوّل مَن تحدَّث عن الْتهابات شبكية العين ابن رشد (١١٢٦–١١٩٨)، وبقي مؤلَّف تذكرةُ الكحَّالين لعليّ بن عيسى (العصر الحادي عشر) الذي صنَّفه عن العين الوحيدُ في ساحته لعصور عديدة وتُرجم إلى عدّة لغاتٍ كاللّاتينية والألْمانية والفرنسية كما أنّ عمّار بن علي (العصر الحادي عشر) أجرى عمليةً جراحية للعين قبل تسعة عصور وقد بيَّن بالتفصيل كيفية إزالة إعتام عدسة العين في كتابه المنتَخب في علاج العين، وهو أيضاً تُرجِم إلى مختلف اللّغات كاللاتينية والألمانية.

١٦. البروفسور سيد حسين نصر، الإسلام والعلم (Islamic Science)، ص ١١٣- ١٣٤.



وواضع علم البصريّات الفيزيائي الكبير ابن الهيثم (٩٦٥-١٠٥١) هو من اكتَشف النظّارات، وأما علي بن عباس (٩٩٤) فقد أجرى عملية للسرطان مناسِبة للعمليات الحديثة، ومؤلَفه كامل الصناعة الطبية والمشهور باسم الكتاب المِلكِي، لا يزال يُدرس حتى الآن بكل إعجاب، وأما أبو القاسم الزهراوي (٩٦٣-١٠١٣) فقد جعل الجراحة عِلماً مستقلاً بنفسه، ورسم ما يُقارب ٢٠٠ آلةِ جراحةٍ، وعرَّف بهافي أثره (التصريف)، وأوضح استخداماتها فيه. العالم ابن النفيس الذي عاش ما بين (١٢١٠-١٢٨٨) اكتشف دورة الدم الصغرى وفصّل ما توصَّل إليه في شرحه على كتاب القانون لابن سينا، وأوّل مَنْ تكلّم عن الجراثيم كان آق شمس الدين (١٣٨٩-١٤٥٩) في مصنفه (مادة الحياة).

إنّ أول مّن استخدم الصفر في الحساب الخوارزمي (٧٨٠-٨٥٠) ووضع أيضاً أسس علم الجبر في كتابه الجبر والمقابلة، لقد قاس أبناء موسى (العصر التاسع) محيط الأرض مع قليلٍ مِن الأخطاء، ثم إنّ البيروني (٩٧٣-١٠٥١) الذي له اكتشافات في فروع العديد من العلوم أثبت أن الأرض كما تدور حول نفسها فإنها تدور حول الشمس، وقد نجح في قياس محيط الأرض إثر محاولاته التي قام بها في مدينة نَنْدنة الواقعة في الهند، وبات قانونه الذي وضعه في هذا الشأن يعرف فيما بعد في أوروبا "بقاعدة البيروني".



لقد حسب البتاني السّنة الشّمسية بفارق ٢٤ ثانية، وأما أول تجربة للطيران فقد قام بها إسماعيل الجوهري (٩٥٠-١٠١٠) وأول تجربة ناجحة للطيران فقد كانت مِن نصيب ابن فرناس في ٨٨٠ حيث تمكّن مِن التّحليق في الجوّ لفترة طويلة بطائرته المُعدّة مِن ريش الطيور وقماش ألبسه طائرتَه التي استطاع أنْ يحطّ بها بانسياب إلى الأرض، وأما الجاذبية فقد تطرّق إليها الرازي (٨٦٤-٩٢٥)، ويسجّل كريستوف كولومبوس أنه عَلِم بوجود أمريكا من المسلمين وبالأخص مِن كتب ابن رشد، ولقد تمكّن الإدريسي (١١٠٠-١١٦٦) قبل ثمانية عصور مِن وضْع خرائط للعالم تشبه إلى حدٍّ كبير خرائط الدنيا الآن، وأما الدّينوري (٨٩٥) فجهز موسوعة في علم الأحياء سمّاها (كتاب النبات) تبلغ ست مجلدات وهو لم يكتف في أثره هذا بالتعريف الخارجي للنباتات بل تعداه إلى ذكر قيمتها الغذائية وميزاتها الطبية وغيرها مع الحديث عن أماكن نموّها إضافة إلى تصنيفها، وأما الجاحظ (٨٦٩) فقد خلَّف في حياة الحيوان كتاباً ضخماً أطلق عليه اسم (كتاب الحيوان) البالغ سبع مجلدات[١٧].

١٧. يمكن الاطّلاع على الآثار التالية فيما يتعلق بالمصادر والأمثلة الغنية بما ذكرنا: البروفسور، فؤاد سزكين، Scienceet et technigue en Islam, فرانكفورت، ٢٠٠٤، وسائر كتبه؛ البروفسور، سيد حسين نصر، Islamic Science, An Illustrated Study, World of Islam Festival Pub. Co. Ltf., England, ١٩٧٦؛ د. سيغريد هونكة، Allahs Sone über dem Abendland-Unser Arabischen Erbe, Germany ١٩٦٠؛ البروفسور، حميد الله، مدخل إلى الإسلام، ص. ٢٤٣ـ٢٦٤؛ http://www.1001inventions.com



لقد قام المسلمون بأبحاثهم العلمية بهدف التعرف أكثر على الله تعالى ولتأدية ما يجب عليهم الإسراع إليه من خدمة عباده في سبيل الفوز برضا الله تعالى مما يعني أنهم إلى جانب اجتنابهم الاشتغال بالعلم النائي عن الفائدة، فكذا لم يستخدموا العلم فيما يعود بالضرر على الناس. يقول كات ستيفنز (Cat Stevens):

«لا تخاطب الدراسات التي طورها الغرب اليوم البشر إلا قليل منها، والباقي يستخدم من قبل فئة معينة لكي تسيطر على الآخرين إن كانت إحصائيات العلم اليوم توجد حلولاً لـ ٥ ٪ من المشاكل الاجتماعية فإن ٩٥ ٪ منها يهدد البشرية».[١٨]

٦. يجعل العدالة فوق كل شيء

إنَّ الله تعالى عادل لا يظلم أحداً ولو بمثقال ذرة فإحدى أسماءه الحسنى تعني أنه ذو عدالة مطلقة وهي الاسم الشريف العدل ولذا فإنه يطلب من عباده العدالة التامة، يقول الله تعالى:

﴿يا اَيُّهَا الَّذِيْنَ اٰمَنُوا كُوْنُوا قَوَّامِيْنَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لله وِلَوْ عَلَى اَنْفُسِكُم اَو الْوَالِدَيْنِ وَالْاَقْرِبِيْنَ﴾ (النساء، ١٣٥)

لقد أمرنا الرسول ﷺ أنْ لا نتخلّى عن العدل في الغضب والحلم

١٨. انظر: حوارات حول الإسلام، ص: ٣٩.



ووعد مَن قَدَرَ على ذلك بجزاءٍ وفيرٍ.

ثمّ إنّ الإسلام يأمر المسلمين بالعدل حتى مع أعداءهم. يقول تعالى:

﴿يَا اَيُّهَا الَّذِيْنَ اٰمَنُوا كُوْنُوا قَوَّامِيْنَ لِلّٰهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَى اَلَّا تَعْدِلُوا اِعْدِلُوا هُوَ اَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ (المائدة، ٨)

كان سهيل بن عمرو خطيبَ قريش وكان يتكلم بالسوء في حق الإسلام على الدوام ويثير الناس على المسلمين فوقع أسيراً في يد المسلمين في غزوة بدر فقال سيدنا عمر رضي الله عنه لِرَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم:

«يا رسول الله، دعني أنزع ثنيتي سهيل بن عمرو، ويدلع (يخرج) لسانه، فلا يقوم عليك خطيباً في موطن أبداً!»

فَقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

"لَا أُمَثِّلُ بِهِ فَيُمَثِّلُ اللهُ بِي وَإِنْ كُنْتُ نَبِيًّا" (سيرة ابن هشام، ٢، ٢٩٣)

وعندما سمع النبي صلى الله عليه وسلم أن المسلمين ألحقوا الضرر بحيوانات ونباتات الطرف المعادي في حصار خيبر غضب بشدّة ونهاهم عمّا فعلوه. (أنظر: أبو داود، الخراج، ٣١ - ٣٣/ ٣٠٥٠)

إنّ الديالكتيك أو المواجهة الوحيدة في الإسلام تكون بين الظالم والمُدافع عن المظلوم وذوو العدل والمدافعين عن العدالة وفي القرآن الكريم:



﴿...فَلَا عُدْوَانَ اِلَّا عَلَى الظَّالِمِيْنَ﴾ (البقرة، ١٩٣)

يمكن لإنسان يحترم حقوق الآخرين سواء كان مسلماً أو غير مسلم العيش في مجتمع مسلم. ولكن إنْ ظلم مسلماً ولم يحترم حقوق الآخرين فمن المسؤولية مواجهته مما يعني أن محور الفرق بيننا وبين الآخرين في المستوى الاجتماعي هو الظلم والعدالة.

وثمة مثال تاريخي يوضح المستوى الذي ارتقى إليه المسلمون في العدل:

وهو أن هرقل جمع الجمع للمسلمين، وحين بلغ المسلمين إقبالهم إليهم لوقعة اليرموك ردوا على أهل حمص ما كانوا أخذوا منهم من الخراج. وقالوا: قد شغلنا عن نصرتكم والدفع عنكم فأنتم على أمركم، فقال أهل حمص: لولايتكم أحب إلينا ما كنا فيه من الظلم والجَور ولندفعن جند هرقل عن المدينة مع عاملكم، ونهض اليهود. فقالوا: والتوراة لا يدخل عامل هرقل مدينة حمص إلا أن نغلب ونجهد وأغلقوا الأبواب وحرسوها، وكذلك فعل أهل المدن التي صولحت من النصارى واليهود. وقالوا: إن ظهر الروم وأتباعهم على المسلمين صرنا إلى ما كنا عليه وإلا فإنا على أمرنا ما بقي للمسلمين عدد، فلما هزم الله الكفرة وأظهر المسلمين فتحوا مدنهم وأخرجوا المقلِّسين فلعبوا وأدوا الخراج.[١٩]

١٩. البلاذري، فتوح البلدان، بيروت ١٩٨٨، ص. ١٣٩.



٧. دين عالمي

يدعو الإسلام جميع الإنس والجن إليه، فيمكن للإنسان أياً كانت ملته ولونه ومهما كانت جنسيته وبلده أن يكون مسلماً، فالإسلام المنظّم للإنسانية باعتبار الواجبات والحقوق لا يقبل التفريق بين الناس إلا على أساس الإيمان، ففرقة المؤمنين وفرقة غير المؤمنين.[٢٠]

ثم إنّ تخصيص نظام مرسَل لسعادة وسلامة البشر مِن قِبل الله تعالى الذي تحيط رحمته بكل المخلوقات بالقليل من الناس وحرمان سواهم من نعمة الإيمان ليس من المنطق بشيء وهو يناقض صفتَي الرحمن والرحيم الثابتتان لله تعالى، يقول الرسول ﷺ:

"الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ، ارْحَمُوا مَنْ فِي الأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ..." (الترمذي، البر، ١٦ / ١٩٢٤)

لم يُعيَّن الجنس في هذا الحديث وليس المقصود فيه المسلمين وحسب بل إن الأمر بالرحمة يشمل جميع الناس وسواهم من الحيوانات والنباتات.

٢٠. كل إنسان يعتبر من ملة النبي المبعوث في عصره. وأما جميع الناس الذين وجدوا بعد بعثة النبي ﷺ فيعدّون من أمته. ولكن في الوقت الذي آمنت به أمته أنكر نبوته البعض منهم.



وتُوضَّح بعثة الرسول ﷺ إلى النّاس كافّة في القرآن الكريم على النحو التالي:

﴿قُلْ يَا اَيُّهَا النَّاسُ اِنِّيْ رَسُوْلُ اللهِ اِلَيْكُمْ جَمِيْعًا الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَالاَرْضِ...﴾ (الأعراف، ١٥٨)

﴿وَمَا اَرْسَلْنَاكَ اِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِيْنَ﴾ (الأنبياء، ١٠٧)

ويقول النبي ﷺ:

"...وكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً"

(البخاري، التيمم، ١)

ولذا فإن النبي ﷺ لم يكتف بإبلاغ مجتمع العرب دين الإسلام ولكنه دعا الإمبراطوريين والملوك والبيزنطة والفرس (الإيرانيين) وبلاد الحبشة والمصريين وسائر الشعوب بإرساله السفراء ومعهم رسائل إليهم[٢١].

وفي الوقت نفسه يُعَدُّ الإسلام شاملاً لكل الأمكنة والأزمنة لا يحدّه مكان أو زمان ولذا فإن المسلمين الآن موجودون في كل مكان

٢١. إنّ متون هذه الكتب المرسلة كما أنها موجودة بين أيدينا فإن النسخ الأصلية لبعض منها يمكن رؤيتها بزيارة متحف قصر توب كابي في اسطنبول. وللاطلاع على صور الرسائل وتحليلاتها يمكن النظر في مؤلفات البروفسور، د. م. حميد الله. نبي الإسلام. الوثائق السياسية. باريس ١٩٨٥. Six originaux des lettres diplomatiques du prophete de İslam, Paris ١٩٨٥



وكل ملّة. وبالأخص يمكننا لمس الوحدة الإسلامية والأخوة في أبهى صورها عند اجتماع هؤلاء الناس حول أطراف الكعبة تلبية لفريضة الحج في وقتها وعبادة الله الواحد الأحد.

للإسلام تكوينة تمكّنه مِن تلبية جميع متطلبات البشر فهو نظام حياة وعقيدة يوفر لهم حقوقهم الروحية والبدنية والشخصية والاجتماعية وهو دين يكشف الغبار عن مصطلحات لم يحدث أنْ لاقت تفسيراً دينياً مقنِعاً أو مُرْضِياً كالحياة والموت والإله والنبي والملائكة والشيطان والدنيا والآخرة والثواب والعقاب والجنة والنار.

ولعلَّ التذكير بما يلي كافٍ للتعمّق في إدراك هذه الفكرة: فالإسلام كما أنه لبّى احتياجات المجتمع الإسلامي الأول المتشكل مِن ثُلّة مستَضعَفة ومظلومة من الناس فكذا لبى جميع الاحتياجات الأخلاقية والحقوقية للأمة الإسلامية لمّا ازدهرت حيث أنشأت حاكميتها البالغة من المحيط الأطلنطي وحتى محيط الباسيفيك، وكانت أعظم دولة على وجه البسيطة من دون ندٍّ.

إذاً فهذه الأمة كانت في كل زمان ولا تزال تجد ضالتها من المعارف المتعلقة بالإيمان والعقائد والعبادات والحياة الاجتماعية وقوانينها وسائر متطلباتها في هذا الكتاب[٢٢].

٢٢. م. حميد الله، تاريخ القرآن الكريم (Le Saint Coran)، ص. ٢٣.



٨. يجعل الناس سواسية

عدَّ الإسلام جميع الناس مخاطَبين بالوحي، فهم أجمعون أفرادٌ في عائلة البشرية التي تؤطّرهم بغض النظر عن الفوارق العِرقية والدينية والجنسية والطائفية بينهم ويعرِّفهم بأنهم ينتمون لأب واحد وأمٍّ واحدة ويلقّنهم أنَّ بعض الفوارق الموجودة بينهم إنما هي وسيلة للتعامل الإيجابي المشترك لا للعداوة فيما بينهم وإن انحدار الناس من أعراق مختلفة وتكوينَهم لمجتمعات متنوعة ما هو إلا اختبارٌ لهم في النِّعم المُعطاة لهم وسبيلٌ لتسابق الناس في الغايات والأهداف المشتركة والاتفاق على الخير[٢٣].

ثم إن الأفضلية بين الناس في الإسلام لا تُقاس بأمور متعلقة بالقدَرِ موجودة إلزاماً وخارجة عن الاختيار كالعِرق واللّون والمِلّة بل بما حصّله من درجة القرب إلى الله تعالى والتقوى منه. وكذا فإن أشياء كالغنى والجمال والقوة وبلوغ مكانة شريفة أو الوصول إلى مرتبة عالية لا تعَدُّ وسائل للأفضلية. بل لا بدّ مِن معرفة أنها مِن نِعم الله تعالى ينبغي تأدية شكرها بأحسن ما يمكن، وشكر النعم يتحقق بجنسها، إنّ النّعم التي يتفضّل الله بها على عباده في الدنيا كالأسئلة المُعطاة للطلبة أثناء الامتحان فلا يفتخر الطالب أبداً بالأسئلة المعطاة له وإنما يسعد بالدرجات التي اكتسبها مقابل

٢٣. المائدة، ٤٨؛ البقرة، ١٤٨.



أجوبته، ولذا وبما أن أجر توظيف النعم التي تفضّل الله بها على المؤمنين لابتلاءهم فيما ترضي الله تعالى سيكون في الآخرة فما من سبب لافتخار المسلم بنفسه وجعلها تسمو على الغير في هذه الدنيا، بل إنّ مثل هذا التصرّف صاحبُه مخدوع.

لقد قال أبو حازم أحد التابعين: «كل نعمة لا تقرب من الله ﷻ فهي بلية».

ومع أن النبي ﷺ قد أرسل رحمة للعالمين فإنه لما احتاج مرة للتعريف بصفاته السَّميَّة أخبر بها مع تكراره قول "**ولا فخر**" مرات عديدة. (الترمذي، المناقب، ١/ ٣٦١٦؛ الدارمي، المقدمة، ٨)

إذاً فالمؤمن الذي يهتمُّ بأوامر الله تعالى أفضل مِن نقيضه. فالعِرق ليس إلا عائد إلى الجسد الفاني، والجسد عبارة عن رداء أُلبِس الروح، وأما الروح فهي أبدية لا عرق لها لأن الأرواح جميعها آتية من الله تعالى[٢٤].

يقول تعالى في القرآن الكريم:

﴿يَا اَيُّهَا النَّاسُ اِنَّا خَلَقْنَاكُم مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُم شُعُوبَاً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا اِنَّ اَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ اَتْقَاكُم اِنَّ الله عَلِيْمٌ خَبِيرٌ﴾

(الحجرات، ١٣)

٢٤. الحجر، ٢٩؛ السجدة، ٩؛ ص، ٧٢؛ الأنبياء، ٩١؛ التحريم، ١٢.



ويقول الرسول ﷺ: "...وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ، لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ" (مسلم، الذِّكر، ٣٨/ ٢٦٩٩؛ ابن ماجة، المقدمة، ١٧/ ٢٢٥)

وفي يوم فتح مكة خاطب النبي ﷺ الناس فقال لهم:

"يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ اللهَ قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عُبِّيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ وَتَعَاظُمَهَا بِآبَائِهَا، فَالنَّاسُ رَجُلَانِ: بَرٌّ تَقِيٌّ كَرِيمٌ عَلَى اللهِ، وَفَاجِرٌ شَقِيٌّ هَيِّنٌ عَلَى اللهِ، وَالنَّاسُ بَنُو آدَمَ وَخَلَقَ اللهُ آدَمَ مِنْ تُرَابٍ" (الترمذي، التفسير، ٤٩/ ٣٢٧٠)

عن أبي نضرة ﵁، حدثني من سمع خُطبة رسول الله ﷺ في وسط أيام التشريق فقال:

"يَا أَيُّهَا النَّاسُ، أَلَا إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ، أَلَا لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجَمِيٍّ، وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ، وَلَا أَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ، وَلَا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ، إِلَّا بِالتَّقْوَى أَبَلَّغْتُ". قالوا: بلغ رسول الله. (أحمد، مسند، ٥، ٤١١/ ٢٣٤٨٩)

٩. يجعل حرية الدين والوجدان ركيزةً

لقد بين الحقُّ تعالى للإنسان الذي خلقه حراً ووضع فيه الشعور الصواب والخطأ، ومنحه حرية الإرادة وملَّكه إياها فكل أحد يرجح ما يرجحه بحرية إرادته وسيتحمّل بنفسه عواقب ما



رجّحه يقول الله تعالى في القرآن الكريم:

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْاَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيْعَاً اَفَاَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُوْنُوا مُؤْمِنِيْنَ﴾ (يونس، ٩٩)

﴿...فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ...﴾ (الكهف، ٢٩)

﴿اِنْ تَكْفُرُوا فَاِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنْكُم وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَاِنْ تَشْكُرُوْا يَرْضَهُ لَكُم﴾ (الزُّمر، ٧)

عن ابن عباس رضي الله عنهما قَالَ: كانت المرأة تكون مِقْلَاتًا (لَا يَعِيشُ لَهَا وَلَدٌ) فتجعل على نفسها إن عاش لها ولد أن تهوده، فلما أجليت بنو النضير (لنقْضهم العهد مع المسلمين) كان فيهم من أبناء الأنصار فقالوا: لا ندع أبناءنا، (وأرادوا أن يكرهوهم على الإسلام) فأنزل الله عز وجل: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الغَيِّ...﴾ (البقرة، ٢٥٦)

(أبو داود، الجهاد، ١١٦ / ٢٦٨٢؛ الواحدي، أسباب نزول القرآن، ص. ٨٥، ٨٧)

إن الإسلام لا يريد أن يُلزِمَ الناس بمبادئه ولذا هو يتحاشى كل أساليب الإجبار والقهر حتى الإلزام الفكري، فمثلاً: لم تكن المعجزة من الوسائل الأساسية في نشر الإسلام، ولم يكن طلب وقوع الحوادث الخارقة للعادة مرحَّباً به من النبي صلى الله عليه وسلم، وبما أن الإسلام تزامن مع تطور الجنس البشري لذا خاطب العقل والذهن بمعجزة القرآن الكريم وربط الإنسانَ به من خلال إظهار القوانين



العقلية والأدلة المقنعة، وبالتالي هو لم يستخدم الإكراه المادي كوسيلة من الوسائل مطلقاً. ثم إن استخدام الإكراه في الدين يسوق الناس عموماً إلى النفاق الذي يعد أخطر من الكفر الظاهر، والعبادة المؤداة بلا إخلاص والمشرَبةُ بالرياء والعجب مردودة على صاحبها.

عن الحسن بن علي بن أبي رافع أن أبا رافع أخبره قال:

بعثتني قريش إلى رسول الله فلما رأيت رسول الله ألقي في قلبي الإسلام، فقلت: «يا رسول الله إني والله لا أرجع إليهم أبداً»

فقال رسول الله ﷺ:

"إِنِّي لَا أَخِيسُ بِالْعَهْدِ وَلَا أَحْبِسُ الْبُرُدَ، وَلَكِنِ ارْجِعْ فَإِنْ كَانَ فِي نَفْسِكَ الَّذِي فِي نَفْسِكَ الْآنَ فَارْجِعْ"

قال: «فذهبت ثم أتيت النبي فأسلمت» (أبو داود، الجهاد، ١٥١/ ٢٧٥٨)

وفي الموطأ عن ابن شهاب أنه بلغه أن نساء كن في عهد رسول الله ﷺ يسلمن بأرضهن، وهن غير مهاجرات، وأزواجهن حين أسلمن كفار. منهن بنت الوليد بن المغيرة. وكانت تحت صفوان بن أمية. فأسلمت يوم الفتح. وهرب زوجها صفوان بن أمية من الإسلام. فبعث إليه رسول الله ﷺ ابن عمه وهب بن عمير. برداء رسول الله ﷺ. أماناً لصفوان بن أمية. ودعاه رسول الله ﷺ إلى الإسلام. وأن يقدم عليه. فإن رضي أمراً قبله. وإلا سيره شهرين، فلما قدم صفوان



على رسول الله ﷺ بردائه، ناداه على رءوس الناس، فقال: يا محمد إن هذا وهب بن عمير جاءني بردائك. وزعم أنك دعوتني إلى القدوم عليك. فإن رضيت أمرا قبلته، وإلا سيرتني شهرين.

فقال رسول الله ﷺ: "**انْزِلْ أَبَا وَهْبٍ**"

فقال: لا والله. لا أنزل حتى تبين لي.

فقال رسول الله ﷺ: "**بَلْ لَكَ تَسِيرُ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ**"

فخرج رسول الله قبل هوازن بحنين. فأرسل إلى صفوان بن أمية يستعيره أداة وسلاحاً عنده. فقال صفوان: أطوعاً أم كرهاً؟ فقال: "**بل طوعاً**"، فأعاره الأداة والسلاح الذي عنده. ثم خرج صفوان مع رسول الله ﷺ وهو كافر فشهد حنيناً والطائف وهو كافر، وامرأته مسلمة، ولم يفرق رسول الله بينه وبين امرأته حتى أسلم صفوان. واستقرت عنده امرأته بذلك النكاح. (الموطأ، النكاح، ٤٤-٤٥)

قال ابنُ إسحاقَ: لما قدم وفدُ نجرانَ على رَسُولِ اللهِ ﷺ دخلُوا عليه مسجدَهُ بعد صلاةِ العصرِ، فحانتْ صلاتُهم فقامُوا يُصلُّون في مسجدِهِ، فأراد النَّاسُ منعهم، فقالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "**دعُوهم**" فاستقبلُوا المَشرقَ فصلُّوا صلاتَهم(٢٥).

٢٥. انظر: ابن هشام، سيرة النبي، بيروت ١٩٣٧، ٢، ٢٠٢-٢٠٧؛ ابن سعد، الطبقات الكبرى، دار صادر، ١، ٣٥٧؛ البيهقي، دلائل النبوة، ٤، ٣٨٢-٣٨٧؛ الحلبي، إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون، ٣، ٢٣٥.



وفي عهد عمر ﷺ قام أبو عبيدة بن الجراح بمعاهدة أهالي حمص النصارى وسلموه المدينة مقابل الحفاظ على أنفسهم وأموالهم وأسوارهم وكنائسهم ونواعيرهم، واستثنى من المعاهدة شرط تحويل ربع كنيسة يُوحَنَّا إلى مسجد، وعندما استلم معاوية الخلافة أراد ضم هذه الكنيسة إلى المسجد الموجود في دمشق إلا أنه رجع عن رأيه لما اعترض الناس، وكذا عبد الملك بن مروان عجز عن إرضاء غير المسلمين على الرغم من إعطائهم الكثير من الأموال، وأما الوليد بن عبد الملك فمع إعطائه كمية كبيرة من المال وتقديمه بدائل مختلفة لم ترضهم أيضاً قام بهدم الكنيسة وألحقها بالمسجد وعندما رُفع هذا الأمر إلى الخليفة عمر بن عبد العزيز تحقق منه وقرر إعادة المكان إلى أصحابه بعدما عرف أنهم على حق ولكن المسلمين هذه المرة لم يسرّهم تحويل مسجدهم إلى كنيسة فقام عمر بن عبد العزيز بمقابلة غير المسلمين وأنهى المشكلة بتبرعه لهم بجميع كنائس الغوطة التي فتحها المسلمين[٢٦].

وكتب فيليب مارشال براون، المؤرخ البريطاني:

«إن الأتراك على الرغم من تحقيقهم انتصاراً كبيراً فإنهم سمحوا لشعوب جميع الدول في إدارة نفسها بنفسها وفقاً لعاداتها وتقاليدها الخاصة بها بسخاء».

٢٦. انظر: ب. د. م. حميد الله، مدخل إلى الإسلام، ص. ٢٣٧.



عندما هاجم نابليون بونابرت عام ١٧٩٨-١٧٩٩ الدولة العثمانية، أراد تحريض الأرمن الذين يعيشون في فلسطين وسوريا. فرد عليه سباستيان السفير الفرنسي في اسطنبول:

«إن الأرمن سعداء جداً في حياتهم هنا ومن المستحيل إحداث التمرد»[٢٧].

١٠. يتخذ اليسر مبدأً

إن ربنا رحمته عامة أراد اليسر بعباده دائماً، ويسر الإسلام ظاهر من كل جوانبه، فلا يجب علينا نفض أيدينا من الدنيا أو التعرض إلى المشقة والبلاء على الدوام أو الابتعاد عن جميع ملذات الدنيا حتى نعيش الدين. وإن الدخول في الإسلام والقيام بموجبه سهل فأضعف الناس يتمكن من تطبيق تعاليمه.

﴿**يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**﴾ (البقرة، ١٨٥)

﴿**هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ...**﴾ (الحج، ٧٨)

﴿**يُرِيدُ اللهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفاً**﴾ (النساء، ٢٨)

وأخبر النبي ﷺ عن أحد مبادئ اليسر:

٢٧. http/ /www.atmg.org/armenianProblem.htlm.



فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ:

"يَقُولُ اللهُ: إِذَا أَرَادَ عَبْدِي أَنْ يَعْمَلَ سَيِّئَةً، فَلاَ تَكْتُبُوهَا عَلَيْهِ حَتَّى يَعْمَلَهَا، فَإِنْ عَمِلَهَا فَاكْتُبُوهَا بِمِثْلِهَا، وَإِنْ تَرَكَهَا مِنْ أَجْلِي فَاكْتُبُوهَا لَهُ حَسَنَةً، وَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَعْمَلَ حَسَنَةً فَلَمْ يَعْمَلْهَا فَاكْتُبُوهَا لَهُ حَسَنَةً، فَإِنْ عَمِلَهَا فَاكْتُبُوهَا لَهُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِ مِائَةِ ضِعْفٍ"
(البخاري، التوحيد ٣٥، الرقاق ٣١/ ٧٥٠١)

وأخبرنا أصحابه ﷺ بأنه كان رَجُلًا سَهْلًا لطيفاً ليناً يؤلف بسهولة ويسهل الأمور دائماً. (مسلم، الحج، ١٣٧)

وجدير بنا هنا ضرب بعض الأمثلة الموضحة يسر دين الإسلام:

- إن الإنسان مكلف بما يتناسب وطاقته وإمكانياته فلا يطلب منه ما هو عاجز عنه ولن يكون مسؤولاً عما ليس في يده وما هو خارج تحمله وفي الآية:

﴿لا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ (البقرة، ٢٨٦)



- التدرّجُ أمرٌ أساسيٌّ في الإسلام ولم يصدر النهي عن المحرمات المنتشرة آنذاك كالخمر والربا والزنا دفعة واحدة، بل كان تحريم بعضها على ثلاث أو أربع مراحل.
- لا بد من التوضؤ بالماء لإقامة الصلاة. ولكن في حالة عدم توافر الماء أو توافر ولكن استخدامه قد يؤدي إلى سوء الحالة الصحية حينها يتعذر الوضوء ويحل التيمم بالتراب محله.
- رخّص الله تعالى للمسافرين في صلاة الفريضة حيث جعل الفريضة البالغة أربع ركعات تؤدى بركعتين بناء على أن للسفر مشقة وضيقاً في الوقت.
- يلزم المسلم تأدية الصلاة قائماً إلا أنه بإمكان العاجز عن القيام تأدية الصلاة قاعداً أو مضطجعاً أو بالإيماء حسبما يسمح به حالهم.
- يتلو المؤمنون من القرآن ما تيسر لهم منه سواء في الصلاة أو خارجها في حياتهم اليومية وما من حد يلزم الناس في هذا الشأن. (المزمل، ٢٠)
- تأدية العبادة غير مرتبط بأماكن خاصة فأي مكان نظيف يمكن أن تؤدى فيه العبادة يقول الرسول ﷺ:

"أُعْطِيتُ خَمْسًا لم يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي: نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ



شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا فَأَيُّمَا رَجُلٍ من أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ الصَّلَاةُ فَلْيُصَلِّ، وَأُحِلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ ولم تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ، وكان النبي يُبْعَثُ إلى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إلى الناس كافة" (البخاري، التيمّم، ١/ ٣٣٥)

- قد يشق الصيام على المرضى والمسافرين إلى حد يضر بصحتهم، ولذا هم مخيرون بين الصيام في رمضان وعدمه. وفي حال لم يصوموا عليهم قضاء ما أفطروه بعد التماثل للشفاء أو العودة من السفر.
- بإمكان المسلمين الواجب عليهم تأدية فريضة الحج تأجيل ذلك فيما لو طرأ مرض أو انعدم الأمن لحرب أو ما شابهه إلى أن يزول الخطر.
- إن الله تعالى أظهر اليسر في رعاية الأيتام وكفارة اليمين والنكاح والمهر والطلاق والنفقة على العائلة والعبادة والقصاص والوصية والعقود وعند اقتراض المال ورده وكل ما هو من هذا القبيل من المعاملات وطلب من المؤمنين أن يتعاملوا على هذا الأساس[٢٨].

إن تكثير هذا النوع من الأمثلة ممكن.

٢٨. انظر: البقرة، ١٧٨، ١٨٠، ٢٢٠، ٢٤١ـ٢٨٠؛ النساء، ٦، ١٩، ٢٥؛ الطلاق، ٢، ٦، ٧.



عن يحيى بن يعمر ﵁، قال: سألت عائشة ﵂: هل كان رسول الله ﷺ ينام وهو جنب؟ قالت لي: «ربما اغتسل قبل أن ينام، وربما نام قبل أن يغتسل، ولكنه كان يتوضأ» قال: الحمد لله الذي جعل في الدين سعة. (أحمد، مسند، ٦، ١٦٦/ ٢٥٣٣١)

وعَنْه ﵁ عن عائشة ﵂، قال: سألها رجل: هل كان رسول الله ﷺ يرفع صوته من الليل إذا قرأ؟ قالت: «نعم، ربما رفع، وربما خفض». قال: الحمد لله الذي جعل في الدين سعة. قال: فهل كان يوتر من أول الليل؟ قالت: «نعم، ربما أوتر من أول الليل، وربما أوتر من آخره». قال: الحمد لله الذي جعل في الدين سعة. (أحمد، مسند، ٦، ١٦٧/ ٢٥٣٤٤)

١١. يربي على التفاؤل والأمل

يريد الإسلام من الناس أن يكونوا متفائلين، يقول الله تعالى:

﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ...﴾ (الأعراف، ١٥٦)

وعن أبي هريرة ﵁ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ:

"لَمَّا خَلَقَ اللهُ الخَلْقَ كَتَبَ فِي كِتَابِهِ وَهُوَ يَكْتُبُ عَلَى نَفْسِهِ وَهُوَ وَضْعٌ عِنْدَهُ عَلَى العَرْشِ: «إِنَّ رَحْمَتِي تَغْلِبُ غَضَبِي»" (البخاري، التوحيد ١٥/ ٧٤٠٤)



وهذه العقيدة كافية ليكون المسلمون متفائلين، ومن ناحية أخرى فإن فضائل حسنة كالعفو والرحمة والصبر والتوكل والإذعان والرضا وحسن الظن تريح المسلمين في الحياة، وإن للمصائب والمحن والأمراض في تكفيرها للذنوب ورفعها للمنزلة المعنوية دوراً مهمّاً فيما يتعلق بتخفيف ثقل الحياة الدنيا. ومن المستحيل أن يغتم مؤمن بعد قيامه بما يجب عليه ويستسلم بعد ذلك إلى القضاء والقدر، والراضي بكل ما هو آت من الله تعالى يعيش سعيداً في حياة ملؤها السكينة والطمأنينة.

وأما بشأن غير المسلمين والمذنبين فإن باب التوبة مفتوح على مصراعيه ويمكن للإنسان أن يؤمن أو يتوب متى شاء ما لم تظهر أمارات الموت وعلامات القيامة، ولكنه وبما أن كلّاً من الموت والقيامة يتخطف الناس فجأة فعلى الناس فوراً التوجه إلى الله تعالى قبل ضياع الوقت. يقول الله تعالى:

﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ. وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ (الزمر، ٥٣-٥٤)

لقد منع النبي ﷺ الناس من التشاؤم من بعض الأشياء وجعلَ النظرَ إلى الأمور بتفاؤل وحسنِ ظنٍ وتأويلها بالخير أساساً[٢٩].

٢٩. انظر: البخاري، الطب، ١٩؛ مسلم، السلام، ١٠٢؛ أبو داود، الطب، ٢٤/ ٣٩١٩.



ينصح الإسلام الناس بتجنب سوء الظن ويحثهم على حسن الظن بالآخرين دائماً، يقول الله تعالى في القرآن الكريم:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ (الحجرات، ١٢)

فالمسلمون هم الذين يستقبلون المصائب من الله تعالى بالصبر ويتمنون الأجر منه بعد اتخاذهم الأسباب. وإن المسلمين لا يقنطون من رحمة الله أبداً إضافة إلى خشيتهم من سخطه فهذا ما يُفسَّر توازناً بين الخوف والرجاء.

وأما عند اقتراب الموت فيزداد شعورُ حسنِ ظنِّهم بين يدي الله ﷻ. قال رسول الله ﷺ:

"لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِاللهِ ﷻ" (مسلم، الجنّة، ٨١ – / ٢٨٧٧؛ أبو داود، الجنائز، ١٢-١٣/ ٣١١٣)

وبالنظر إلى الناحية المادية فليس من الممكن أن يكون المسلمون متشائمين، إذ قدّر الله جل وعلا رزقَ جميع البشر كما قال في الآية الجليلة:

﴿وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ مِنْ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ...﴾

(الأنعام، ١٥١)



﴿وَكَأَيِّن مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (العنكبوت، ٦٠)

لا بد لكل إنسان من الحصول والوصول إلى رزقه المقدر له، ولذلك يجب عدم التشاؤم في هذا الشأن بل التمسك بالأسباب اللازمة في توفير الرزق وينبغي أن نقنع بما قسمه الله تعالى من الرزق، من غير أن نقول عنه: إنه قليل أو كثير، بعد العمل على نحو شريف والقيام بما في الوسع، وعليه استخدام الرزق بما يرضي الله تعالى.

١٢ . يعطي أهمية للتكافل الاجتماعي والديناميكية (الحيوية)

الإنسان مخلوق اجتماعي خِلقةً؛ لا يمكنه العيش وحيداً، فهو بحاجة إلى أشخاص آخرين يأنس بهم، وإلى جانب هذا فإنه خلق ضعيفاً فهو ليس قوياً بما يكفي لتلبية جميع احتياجاته بنفسه، ولذلك يجب أن يعيش الناس في مجتمع ويتعاونوا فيما بينهم ويؤدوا ما تستلزمه عبوديتهم لله معاً، يقول الرسول ﷺ:

"إِنَّ اللهَ لاَ يَجْمَعُ أُمَّتِي، أَوْ قَالَ: أُمَّةَ مُحَمَّدٍ ﷺ، عَلَى ضَلاَلَةٍ، وَيَدُ اللهِ مَعَ الجَمَاعَةِ، وَمَنْ شَذَّ شَذَّ إِلَى النَّارِ" (الترمذي، الفتنة، ٧/ ٢١٦٧)

"الجماعة رحمة والفُرقة عذاب" (أحمد، مسند، ٤، ٢٧٨، ٣٧٥)



إن الإسلام بأمره الناس بالصلاة في الجماعة وصلاة الجمعة والعيدين وفريضة الحج والزكاة والإنفاق والأضحية يحثهم على الاجتماع دائماً في العبادات وفي العلاقات البشرية أيضاً كتجهيز الجنازة والأعراس وعيادة المريض والمحافظة على إبقاء الروابط بين الأقارب قوية والاشتغال بالمحتاجين.

ومن المؤكد وجود بعض الصعوبات الناجمة عن التعامل مع الناس لذا تحمّل الناس تتطلب منهم التضحية ويَعِدُ الإسلام المسلمين الذين يعيشون ضمن المجتمع ويحمّلون أنفسهم عبء الغير بمكافأة كبيرة.

لقد كان نبينا صاحب الخلق واللطف ﷺ لا يقلّل من شأن أي أحد من الناس حتى الفظّ منهم مع تعرضه لإساءاتهم بل كان يعاملهم بالحسنى.

وقد آلم هذا الأمر عمه العباس رضي الله عنه فقال له:

«يا رسول الله، إني أراهم قد آذوك وآذاك غبارهم، فلو اتخذت عريشاً تكلمهم منه؟» فَقَالَ:

"لَا أَزَالُ بَيْنَ أَظْهُرِهِمْ يَطَؤُونَ عقِبِي، وَيُنَازِعُونِي رِدَائِي حَتَّى يَكُونَ اللهُ هُوَ الَّذِي يُرِيحُنِي مِنْهُمْ" (الدارمي، المقدمة، ١٤؛ ابن أبي شيبة، ٧، ٩٠؛ ابن سعد، ٢، ١٩٣)



ويقول الرسول ﷺ موصياً أمته بالشيء نفسه:

"الْمُسْلِمُ إِذَا كَانَ يُخَالِطُ النَّاسَ وَيَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ خَيْرٌ مِنَ الْمُسْلِمِ الَّذِي لَا يُخَالِطُ النَّاسَ وَلَا يَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ" (الترمذي، القيامة، ٥٥/ ٢٥٠٧؛ ابن ماجه، الفتن، ٢٣؛ أحمد، ٢، ٤٣)

إن الإسلام يوجه الناس إلى الفعاليات الاجتماعية وعيش حياة ديناميكية (حيوية) من خلال أمره بالعمل لتوفير الرزق وبالزواج لتأسيس أسرة وإنجاب أطفال وبالتصدق والعطاء واغتنام الوقت على نحو جيد وكذا يأمر باستغلال الدنيا بأقصى درجة للفوز بالآخرة، ويطلب منا تبليغ الحقائق إلى الجميع وإبعادهم عن الأخطاء، كما يأمرنا بالحفاظ على المال والنفس والعرض والشرف والنسل والوطن والدفاع عنها وهو يدفع الناس ليعيشوا حياة من النشاط والحيوية الاجتماعية والنهضة من خلال زرع فكرة أنه ما من خير يعمله أحدهم ولو كان مقدار ذرة ولا من شر ولو كان مثقال ذرة إلا وسوف يلقى جزاءه[٣٠].

والإسلام بحثِّه الناس على الاجتماعية لا يبعدهم مطلقاً عن عبادتهم وتفكرهم الفردي وهو ينصحهم بأن يؤدوا جميع فعالياتهم الاجتماعية في سبيل إرضاء الله تعالى وبنية العبادة له، ويريد منهم

٣٠. انظر: الزلزلة، ٧-٨؛ الأنعام، ١٠٤؛ الزمر، ٤١؛ فصلت، ٤٦؛ الجاثية، ١٥.



أن يواصلوا العيش بشعور الوجود مع الله تعالى حتى وهم مع العامة على أساس مبدأ "الاختلاء بالله في حضور الغير"وبتعبير آخر يعيشون ضمن إطار قاعدة "اليد واقعةٌ في همِّ الربح، والفؤاد في همِّ الحبيب"

ثم إن مسائل كالتفكر في الموت والإيمان بالقدر والتوكل والاستسلام لا توقع في العطالة واليأس مطلقاً كما يفهم البعض خطأً، بل على العكس إنه يعودهم على العمل بدقة أكثر وعزم أقوى وبطمأنينة القلب.

فالإنسان الذي يتذكر الموت يعزم على القيام بعمل أكثر وأجود بعد استحضاره ضيق الوقت، ولايضيعه بأمور ليس ذات أهمية، وهو بذلك لا يقع في المعاصي التي يجره إليها كل من النفس والشيطان، إن المؤمن الذي يؤمن بالقدر ويعي التوكل والإذعان بحق يدرك عظم الخطأ إن هو قام بعمل يقدر عليه من غير أن يتوكل على الله تعالى، وبالتالي يرتاح المؤمن حين يترك النتائج على الله تعالى بعد قيامه بكل ما في وسعه، وغير المؤمن بالقدر والرافض للتوكل والاستسلام فما من أمر أفظع مما هو فيه، ومثل هؤلاء الناس يبقون في قلق دائم فيما يخص النتيجة المنتظرة لأعمالهم التي قاموا بها وفي حال ظهرت النتائج على خلاف ما يتوقعونه يصابون بانهيارات روحية كبيرة. وأما المؤمن والمصدق بالقدر والمستسلم



لله تعالى فإنه حتى ولو لم يحصل على النتائج بعد القيام بمسؤولياته فهو يلقى الثواب بنيته وإلى جانب هذا يكون محمياً من الوقوع في الحزن الشديد وبعبارة أخرى يكون قد فاز من الناحية المادية والمعنوية أيضاً.

١٣. يعطي الإنسان قيمة عليا

يهب الإسلام للإنسان مكانة استثنائية وشرفاً متميزاً بين المخلوقات، يقول الله تعالى في الآية الشريفة:

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الِانْسَانَ فِي اَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ (التين، ٤)

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلا﴾ (الإسراء، ٧٠)

وقد كرّمَ الله ﷻ الانسان في حياته وبعد مماته، فَعن يعلى بن مرة رضي الله عنه قال:

«سافرت مع النبي ﷺ غير مرة فما رأيته مر بجيفة إنسان إلا أمر بدفنه، لا يسأل أمسلم هو أم كافر» (الحاكم، المستدرك، ١، ٥٢٦/ ١٣٧٤)

وعَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها، قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ:

"كَسْرُ عَظْمِ الْمَيِّتِ كَكَسْرِهِ حَيًّا" (ابن ماجه، الجنائز، ٦٣/ ١٦١٦)



فيا ترى ما هي قيمة روح ونفس الإنسان الذي تلاقي حتى جنازته كل هذا الاحترام يقول الله تعالى:

﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا...﴾ (المائدة، ٣٢)

ولهذا السبب فإن التعدي على النفس سواء نفس الغير أو حتى نفسه محظور بشدة ويتوعد الله تعالى المتعدي بجزاء ثقيل[٣١].

يقول مولانا: «لو ذكرت القيمة الحقيقية للإنسان لاحترقت أنا والدنيا! لكن وللأسف الشديد لم يدرك الإنسان قيمته يوماً بل باع نفسه بثمن زهيد، كان الإنسان قماشاً مصقولاً فحول نفسه إلى رقعة في سترة من الصوف»[٣٢].

إن الله تعالى حفظاً لعباده حتى المذنبين منهم يعُدُّ التكلم في حق الغير في غيبته (الغيبة) من المعاصي الكبيرة، ويحرّم قطعاً الاستهزاء بالناس ولمزهم وهمزهم وتقليدهم على نحو السخرية وسوء الظن والتحري عن نقائصهم وأحوالهم الخاصة. (الحجرات، ١١ - ١٢)

لقد بين الحق تعالى أنه يصفح عن الحقوق المتعلقة به وأما

٣١. انظر: البخاري، الديات ٢١، الطب ٥٦؛ مسلم، الإيمان، ١٧٥.
٣٢. المثنوي، جـ٣، البيت: ١٠٠٠ ـ ١٠٠١. (بتصرف).



العائدة إلى العباد فمتروكة لصاحب الحق هو من يسامح فيها.

إن الإسلام الذي رفع من قيمة الإنسان وكرَّمه أعطاه حقوقاً متناسبة مع فضله وكرمه.

إن الإسلام يعدُّ وجود الإنسان وحده سبباً كافياً لحصوله على حقوقه الأساسية، وفقهاء الإسلام يعدُّون صفة الآدمية -أي أن يكون المخلوق إنساناً- عمدةً لحقوق الإنسان الأساسية، ويتبنّون القول بأن هذه الحقوق عامةً وشاملةً، فلا يفرقون في هذا بين الناس على أساس الدين والعرق والجنس والطبقة الاجتماعية والمواطنة أبداً.





القسم الثاني

العقيدة والعبادة والمعاملة



أ. أسس عقيدة الإسلام

ترتكز الأسس التي ينبغي للبشر تصديقها إلى الوحي، وليس إلى وجهات نظر بشرية وآراء شخصية، إن مبادئ عقيدة الإسلام بينها القرآن والأحاديث الشريفة على نحو لا يدع مجالاً لأي تأويل. قال رسول الله ﷺ حين سأله جبريل عليه السلام:

"**فأَخْبِرْنِي عن الْإِيمَانِ؟**" قال:

"**أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ**" (البخاري، الإيمان، ٣٧؛ مسلم، الإيمان، ١، ٥؛ الترمذي، الإيمان، ٤؛ أبو داود، السنة، ١٦؛ أحمد، جـ ١، ص. ٩٧)

ومن الممكن تلخيص هذا بما يلي:

١. الإيمان بِاللَّه عزّ وجلّ

أول وظيفة على العاقل البالغ هي معرفة الله تعالى الذي خلقه والإيمان به والعبودية له يقول الله عزّ وجلّ في القرآن الكريم:

﴿**رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا**﴾ (مريم، ٦٥)



لا يكلَّف الناسُ الذين يعيشون حياة من الحرمان الذين لم يعرفوا الإسلام بالعبادات كالصلاة والصيام والزكاة وأحكام الشريعة الأخرى إلا أنهم مكلفون بالإيمان بالله، لأن الإيمان بالله تعالى هو مقتضى الفطرة البشرية، وبإمكان كل إنسان أن يحكم بعقله عند النظر في المخلوقات العظيمة والمذهلة بأن لها خالقٌ عظيم. ويشهد على هذا كل صاحب عقل سليم.

يؤمن المسلمون بالله تعالى على النحو التالي:

الله تعالى موجود، وهو واحد، ووجوده لا أول له ولا آخر، لا يشبه أحداً من مخلوقاته ولا مثيل له بين مخلوقاته ولا يعتمد وجوده على وجود الغير، فوجوده ذاتي من غير أن يلد أو يولد، ومن دون أن يكون أباً أو ابناً، ووجوده منزَّه عن الزمان والمكان، يعلم ويسمع ويرى كل شيء دون أية وساطة، وهو حتماً يمتلك علماً ليس له حد.

- يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها ومايعرج إلى السماء وماينزل منها، هو عالم الغيب لا يغيب عن علمه شيء ولو كان مقدار ذرة في السماء والأرض، ويدخل ضمن علمه كل ما هو أكبر من الذرة وما هو أصغر منها. (سبأ، ٢ – ٣)
- يعلم ما تحمل كل أنثى ويعلم مكنونات الأرحام وما تزيده وتنقصه، وكل شيء عنده بحساب دقيق، ويعلم الغيب



والمشاهد ومن يسِرُّ بقوله ومن يجهر به ومن يستخف بالليل أو يتحرك في النهار، إنه يعلم السر وما هو أخفى منه. (الرعد، ٨ – ١٠؛ طه، ٧؛ القصص، ٦٩؛ السجدة، ٦؛ هود، ٥)

والله تعالى صاحب قدرة مطلقة لا محدودة وإلا لما ظهرت جميع هذه المخلوقات ولما استمر نسلها، ويَعرِّف الله عز وجل لنا ذاته العليَّة بما يلي:

- إن قوله كن فقط كافٍ لإيجاد السموات والأرض من العدم أو خلق أي شيء يريده. (البقرة، ١١٧)
- إن خلق أو بعث الناس أجمعهم بعد الموت بالنسبة له كبعث واحد منهم. (لقمان، ٢٨)
- بإمكان الله تعالى إجراء حوادث جسيمة كالقيامة التي تعني اضطراب نظام الكائنات كلها في لمح من البصر بل أدنى منه. (النحل، ٧٧)

وله حياة مطلقة وإرادة مطلقة يريد ويفعل ما يشاء، وهو متصف بصفة الكلام، يتكلم من غير صوت وحرف، وقد أرسل كتباً إلى الناس بواسطة الرسل.

إن الله تعالى هو خالق المخلوقات الذي لا مثيل ولا نظير له، وهو الخالق والمحيي لمن خلقه، والمميت والباعث لهم من



جديد، أعدَّ لعباده الصالحين نعيماً ولعباده الطالحين عذاباً، إنه تعالى متصف بجميع صفات الكمال والمنزه عن جميع صفات النقص.[1]

٢. الإيمان بالملائكة

هي أجسام نورانية لطيفة خلقها الله ﷻ قبل خلق العالم لا توصف بذكورة أو أنوثة ولا تنفك عن طاعة الله ﷻ تشهد مخاطبة الله تعالى وتتكلم معه ولا تعصي الله ما أمرها مطلقاً وتفعل مايريد بعيدة عن الأحوال البشرية من أكل وشرب ونوم وتعب وملل ليست لديهم شهوات حيوانية ورغبات نفسية معصومون عن الأخطاء والمعاصي يمتلكون قوة كبيرة وسرعة هائلة ومقدرة على التّشكل بمختلف الأشكال بإذن الله تعالى لا يعلمون الغيب وما استأثر الله بعلمه إلا ما علمهم الله ﷻ وأطْلعهم عليه من الغيب.[2]

وإن الجانّ نوع من المخلوقات التي لا تُدرَك بالحواس وتمتلك الشعور والإرادة كالبشر وهي مكلفة باتباع الأوامر الإلهية، وفيهم المؤمن والكافر، والشيطان من الجانّ.

١. انظر: العقائد النسفية، ص: ٣١ ـ٣٦.

٢. البقرة، ٣٠-٣٤؛ الأعراف، ١١، ٢٧؛ هود، ٦٩-٧٠؛ الحجر، ٢٨، ٥١-٥٢؛ الإسراء، ٦١، ٩٢؛ الكهف، ٥٠؛ طه، ١١٦؛ ص، ٧١، ٧٣؛ النجم، ٥؛ التحريم، ٦؛ التكوير، ٢٠.



إن الشيطان المتجرّئ على التمرد يبذل أقصى جهده ليُبعد الناس عن الطريق السّوي منذ زمن بني آدم.[3] ثم إن الله تعالى بين لنا أن الشيطان عدوّ لبني آدم في كثير من الآيات، فيقول تعالى:

﴿وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيطَانِ﴾ [4]

ويعلمنا أن العداوة القائمة بين بني آدم والشيطان ستدوم إلى يوم الدين من خلال تأكيده على الأحداث التي جرت بين آدم عليه السلام والشيطان [5] ويخبرنا في القرآن الكريم بأنه يراهم هو وأعوانه من حيث لا يرونهم، ويقعد لهم الصراط المستقيم، ويأتيهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وشمائلهم،[6] ويزيّن لهم سيئاتهم،[7] ويمنّيهم ويعِدهم الغرور،[8] ويدفعهم إلى ارتكاب المحرّمات بتجاوزهم أوامر الله تعالى،[9] ويُوقع

3. النحل، ٦٣.
4. البقرة، ١٦٨، ٢٠٨؛ الأنعام، ١٤٢؛ الأعراف، ٢٢؛ يوسف، ٥؛ الإسراء، ٥٣؛ طه، ١١٧؛ فاطر، ٦؛ يس، ٦٠؛ الزخرف، ٦٢.
5. الحجر، ٣٤-٣٨.
6. الأعراف، ١٦-١٧، ٢٧.
7. الأنعام، ٤٣؛ الأنفال، ٤٨؛ النحل، ٦٣؛ فصلت، ٢٥؛ النمل، ٢٤؛ العنكبوت، ٣٨.
8. النساء، ١١٩-١٢٠؛ الإسراء، ٦٤؛ الحج، ٥٢ ـ ٥٣؛ محمد، ٢٥.
9. البقرة، ١٦٩؛ النساء، ١١٩؛ مريم، ٨٣؛ فاطر، ٦.



بينهم العداوة والبغضاء[١٠]، ويوسوس ويكيد لهم.[١١] إنّ الله تعالى قد أعطى إبليس أبا الشياطين الْمُهلة التي طلبها منه[١٢] إلا أنه أعلمه أنه ليس له سلطان على عباده المخلصين والذين هم على ربهم يتوكلون، وبيّنَ أنهم في حفظه.[١٣] إنَّمَا سلطان الشيطان على الذين يتولونه والذين هم به مشرِكون، وهو وليّ الذين لا يؤمنون.[١٤] يقول الله تعالى في كتابه الكريم:

﴿هَلْ اُنَبِّئُكُمْ عَلٰى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطينُ تَنَزَّلُ عَلٰى كُلِّ اَفَّاكٍ اَثيمٍ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَاَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾ (الشعراء، ٢٢١–٢٢٣)

فالقرآن يحثّنا على الاستعاذة بالله مِنْ وسوسة الشيطان ومكائده.[١٥]

ولكن ينبغي عدم تصوير الشيطان على أنه قوة لا تقهر فإمهال الله تعالى إياه وإعطاءه بعض الإمكانيات بموجب الابتلاء لا يعني أنه أعطاه قوة وسلطة لا محدودة حيث يوضّح القرآن

١٠. المائدة، ٩١؛ الأنعام، ١٢١؛ الإسراء، ٥٣؛ يوسف، ١٠٠.

١١. النساء، ٧٦؛ الأعراف، ٢٠٠-٢٠١؛ الأنفال، ١١؛ يوسف، ٥؛ المجادلة، ١٠؛ الناس، ٤-٦.

١٢. لم تردنا معلومات فيما يتعلق بوهب سائر الشياطين حياة طويلة كإبليس، والظاهر أن ما أعطيه خاصٌّ به. (أحمد لطفي كازانجي، العقيدة الإسلامية، ص.١١١)

١٣. الحجر، ٤٠-٤٢؛ النحل، ٩٩؛ الإسراء، ٦٥؛ ص، ٨٢-٨٣.

١٤. الأعراف، ٢٧، ٣٠؛ النحل، ١٠٠؛ مريم، ٨٣.

١٥. الأعراف، ٢٠٠؛ النحل، ١٨؛ المؤمنون، ٩٧-٩٨؛ فصلت، ٣٦؛ الناس، ١-٦.



الكريم أن مكائد الشيطان ضعيفة وأنه ليس له سلطانٌ تامٌّ على الناس فسلطانه لا يتعدّى دعوته إياهم إلى السوء.[١٦]

٣. الإيمان بالكتب السماوية

لقد أوحى الله تعالى إلى أنبيائه نصوصاً تتضمن العقيدة والعبادة والأخلاق ومعارف وأحكام تتعلق بالدنيا والآخرة.

ومن الكتب المنزلة مِن الله تعالى الصحف الأولى وهي الصحف المنزّلة على إبراهيم وموسى عليهما السلام ونُسَخ التوراة والزبور والإنجيل الأصلية والقرآن الكريم.[١٧]

٤. الإيمان بالرسل عليهم الصلاة والسلام

أول الأنبياء آدمُ عليه السلام، وخاتمهم محمد ﷺ، وبينهما كثير من الرسل الذين أرسلوا أُخْبرنا بهم أو لا. ونحن لا نفرّق بينهم، فكلهم متصفون بالصدق والأمانة والفطنة والعصمة من المعاصي، يؤدون وظيفة التبليغ المكلفين بها، ويستحيل أن يتصفوا بصفات الألوهية، وإنما لهم المعجزات.

ما من أمة خلت إلاّ وبعث الله فيها نبيّاً، فقد أرسل الله تعالى الرسل إلى الناس رحمةً وعنايةً بهم. (النحل، ٦٣؛ فاطر، ٢٤؛ يونس، ٤٧)

---

١٦. النساء، ٧٦؛ إبراهيم، ٢٢؛ الحجر، ٤٢؛ النحل، ٩٩؛ الإسراء، ٦٥.

١٧. البقرة، ٨٥؛ آل عمران، ٣-٤؛ النساء، ١٦٣؛ طه، ١٣٣؛ الحديد، ٢٦-٢٧؛ الأعلى، ١٨-١٩.



٥. الإيمان باليوم الآخر

لقد منّ الله تعالى على الناس بأوصاف عالية ونعم لا تحصى لحكمة بالغة، وإنه تعالى يريد من عباده أن يطيعوا أوامره، ويعد من يطيع أوامره بالثواب، ويتوعد من يعصيها بالعقاب، وذلك في الآخرة، فهي يوم الحساب العظيم الذي يتحقق فيه وعد الله تعالى، وتظهر فيه الأعمال الدنيوية وتلقى جزاءها ولو كانت مثقال ذرة من خير أو شر.

يقول محمد سعيد رمضان البوطي:

«وهذا الإنسان الذي يعيش في وجود الله تعالى متألهًا متجبراً، أسكرته تلك المواهب الإلهية المودعة في كيانه، يطغى على أخيه الإنسان بالقتل والظلم وشتى مظاهر الحيف والجور، وهذا الآخر الذي عاش مهيضاً مستضعفاً تحت سلطانه وبطشه، فلم يشعر من الدنيا إلا بما فيها من ضنك وبؤس، على حين لم يشعر الآخر إلا بما فيها من رفاهية ونعيم. هل تنتهي قصتهما بالوصول إلى غلاف الموت دون أن تأتي من وراء ذلك تتمة تعيد الحق إلى نصابه وتكشف عن سيادة العدل على الظلم والجور؟ وهل رأى أحد من الناس مسرحية مثلت أمام المشاهدين من فصل واحد، ثم أسدل الستار وانتهت القصة وإن حوادثها لاتزال مجزأة معلقة، ولاتزال الأفكار متطلعة منها إلى تفسير ماظل



مبهماً وتتميم مابُتِر مجزءاً، ولاتزال الأعصاب مشدودة إلى معرفة المرمى والمغزى من القصة وكاتبها؟!

إن طفلاً عاقلاً من الناس لا يؤلف في مدرسته مسرحية بهذا الشكل، أفيقيم الله الحكيم الخبير قصة كونه العظيم هذا على مثل هذا العبث العجيب الذي يتنزه عنه الأطفال؟!»[١٨]

إن كان الله تعالى الخالق لهذه الدنيا التي نعيش فيها على أكمل وجه يعد أنه سيخلق عالماً مختلفاً اسمه الآخرة فإنه لا حق لنا في التشكيك بذلك لأن الله تعالى لا ينفك يثبت لنا قدرته على ذلك في كل آن، يقول أبو رزين العقيلي رضي الله عنه: قُلْتُ: «يا رسول الله كيف يُحيي الله الموتى، وما آية ذلك في خلقه؟» فَقَالَ:

"أَمَا مَرَرْتَ بِوَادِي أَهْلِكَ مَحْلا؟" قَالَ: بَلَى، قَالَ:

"أَمَا مَرَرْتَ بِهِ يَهْتَزُّ خَضِرًا؟" قَالَ: قُلْتُ: بَلَى قَالَ:

"فَكَذَلِكَ يُحْيِي اللهُ الْمَوْتَى وَذَلِكَ آيَتُهُ فِي خَلْقِهِ" (أحمد، ٤، ١١؛ الحاكم، المستدرك، ٤، ٦٠٥ / ٨٦٨٢)

وعليه فإنه سيأتي يوم تقوم فيه القيامة وتصل فيه الحياة الدنيوية إلى نهايتها، وعندها تبدأ الحياة الأخروية فيحاسب الناس على ما فعلوه في دنياهم بعد بعثهم من جديد، فيدخل من آمن وعمل

١٨. الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي، كبرى اليقينيات الكونية، ص: ١٧٩-١٨٠.



صالحاً الجنة، ومن أنكر إلى جهنم، وأما من آمن وعصى أوامر الله تعالى فأذنب فإما أن يعاقب في جهنم على ما اقترفه من المعاصي وإما أن يتغمده الله برحمة من عنده ويدخله الجنة مباشرة.

٦. الإيمان بالقدر

إن الله تعالى يعلم من الأزل أعمال عباده كلها وكل ما يتعلق بالمخلوقات الأخرى والحال التي ستكون فيه في المستقبل، وكلُّ أمر سيقع عندما يحين أوانه كما هو في علمه سبحانه تعالى، وليس في هذا -كما يظن البعض- جبرٌ؛ أي إلزام للناس بشيء ما، لأن الله تعالى عالم بكل ما سيقدم عليه عباده من الأعمال وما سيتحقق في ملكه وإلا فإن ذلك يستلزم نقصاً في حقه تعالى.

إن الناس ذوو إرادة وهم أحرار وليسوا تحت الجبر، وقد كتب الله تعالى ما سيكون بعلمه بما مضى وما سيكون. لا يلزم من العلم القيام بالأمر، فيمكن حساب الساعة والدقيقة لكسوف الشمس ولكنها لا تكسف لعلم أهل العلم بذلك، إنها ستكسف ولكن العلماء يكشفون عنه بالبحث قبل وقوعه. إن العلم بالشيء وتقديره قديمٌ، وخلقه يكون عندما يحين أوانه. فالإنسان يريد فعل شيء بإرادته الحرة، ويخلق الله تعالى له الفعل الذي يريده ليجعله حراً يمتلك إرادة. ولكن الله تعالى يرضى عن الأعمال الصالحة ولا يرضى عن السيء منها.



ب. العبادات في الإسلام وحِكَمُهَا

شهدنا في القسم السابق وجود الله تعالى وصفاته وخلقه للإنسان بأحسن تقويم والأهمية غير المحدودة التي أكرمه بها، والنعم التي منَّ عليه بالكثير منها.

وبعد هذا كله فهل من الممكن تصور أنه ما من مسؤولية أو وظيفة في عالم هذه المخلوقات؟ أَمِن الممكن أنْ نفكّر أنه لا فرق بين صاحب العقل والحيوانات وسائر المخلوقات غير العاقلة في هذا العالم؟ وكيف لنا التفكير بأن حياة هذا الإنسان لا تعدو الأكل والشرب واللبس والزواج والتكاثر ثم ما يلبث أن يرمي نفسه في أحضان العدم حيث يبتلعه الموت. يقول الله تعالى:

﴿أَفحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُوْنَ...﴾ (المؤمنون، ١١٥)

﴿وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُوْنِ﴾ (الذاريات، ٥٦)

﴿وَاعْبُدْ رَبَكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِيْنُ﴾ (الحجر، ٩٩)



إن العبادة تعني إظهار العبودية لله تعالى وطاعته والإذعان له، وبالمعنى الواسع أن تكون جميع التصرفات والأحاديث والأحاسيس والأفكار الصادرة عن الإنسان في حياته في إطار الحدود التي رسمها الله تعالى.

وليست العبادة إلا عبارة عن أداء شكر النعم التي أكرم الله تعالى بها عباده والفضل الذي امتنَّ به عليهم.

والعبادات المؤدّاة تعود بالنفع على صاحبها، إذ إن العبادة تخلّص من التجذّر في المادية، وتوجّه الأنظار والأفكار نحو غايات أسمى وأعلى وتسمح بالتجول في أفق واسع.

ومن جهة أخرى فإن العبادات ليست مفروضة من أجل الآخرة فقط، وإلى جانب فوائدها المعنوية لها فوائد مادية أيضاً، إذ إن الإسلام عبارة عن نظام متكامل لا يُهمِل أيّاً من ميادين الفعاليات الإنسانية كما أنه مشتمل على جميع مناحي الحياة.

وفي الوقت نفسه فإن الإسلام يؤسِّس روح التكاتف والتآزر في ميادين الفعاليات الإنسانية، ولذا فإن الأعمال الدنيوية المناسبة للأحكام الإلهية تكسِب الثوابَ، والعبادات أيضاً محتوية على الكثير من الفوائد الماديّة والبدنية، وحتى لو أدرك عقل الإنسان بعضَ الحكم الدقيقة لهذه العبادات فإنه لن يستوعب الكثير منها، ثم إن الأصل في العبادات الإخلاص في العبودية لله تعالى



وليس الحصول على المنافع الدنيوية، ولكن وللتشويق نودّ سَرد نبذة من فوائد العبادات:

١ . الصلاة وحِكَمُهَا

وهي فعل يفتتح بالتكبير ويُنهى بالسلام، ويتضمن كلاماً مخصوصاً،[١٩] ولقد أمر الله تعالى بالوضوء وتنظيف البدن واللباس والمكان لبعض العبادات كالصلاة والطواف وقراءة القرآن، وعند تدقيقنا في أحكام الوضوء والغسل يمكننا رؤية مقدار الأهمية المُعطاة للنظافة المادية في الإسلام إلى جانب المعنوية، وإن كتب الفقه تبدأ بأبواب الطهارة، وهذا يعني أن إحدى فوائد الصلاة منحُها المصلي حياة نظيفة.

ومن ناحية أخرى فإن الصلاة تنهى المرء عن الفحشاء والمنكر والبغي، وتمنعه من الانغماس في الشهوات والغرائز وإشباعها دون حدود،[٢٠] وبما أنها تُؤدّى خمس مرات في

١٩. يظن بعض الناس أن المسلمين عند تأديتهم الصلاة يعبدون الكعبة، وهذا ليس إلا من الظن الخاطئ. فالمسلمين لا يعبدون الكعبة أو الحجر الأسود بأي شكل من الأشكال. ولا يسجدون للحجر الأسود ولا يتوجهون له في صلاتهم. فما يتوجه إليه المسلمون في صلاتهم ليس بناء الكعبة بل الساحة المتواجدة فيها الكعبة. فلو أزيلت الكعبة أو هدمت على أن ترمم لن تتغير قبلة المسلمين. (البروفسور. د. محمد. حميد الله. مدخل إلى الإسلام. اسطنبول. ٢٠٠٣ ص: ١٠٨)

٢٠. العنكبوت. ٤٥.



اليوم لذا تُعَدُّ الدواء الأكثر فعالية ضد شهوات النفس التي تُنسي صاحبها الله تعالى، إلى جانب أنها تكبح زمام النزعات والرغبات وتحثّ على الاستقامة في كل شأن. وبهذا فإن المؤمن عندما يصلي طلباً لرضا الله تعالى يقوم بإصلاح حياته الدنيوية والأخروية، وفي الوقت نفسِه يقي نفسَه من الشر وغرائز النفس.

عن أبي هريرة ﵁، قال: جاء رجل إلى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: إِنَّ فُلاناً يُصلي بالليل، فإذا أصبح سَرق قَالَ:

"إِنَّهُ سَيَنْهَاهُ مَا تَقُولُ" (أحمد، مسند، ٢، ٤٤٧/ ٩٧٧٨)[٢١]

---

٢١. لقد كتب مراد بيرسال في السابع عشر من شباط عام ٢٠٠٩ في جريدة ستار مقالاً تحت عنوان «الصلاة تمنع الجريمة»، يقول فيها أنه يعتقد «أن معدل الجريمة في المدن التي تؤدى الصلوات فيها في المساجد ينخفض بالقياس على المدن التي لا تؤدى فيها الصلوات»، وأنه يبحث في هذا الشأن، وحسبما أفاده:

على سبيل المثال: ففي إحصائيات معدل حوادث الجنايات لكل فرد، كانت العشرين دولة الأولى، (في الألف):

١. كولومبيا (٠. ٦١) ٢. جنوب أفريقيا (٠. ٤٩) ٣. جامايكا (٠. ٣٢) ٤. فنزويلا (٠. ٣١) ٥. روسيا (٠. ٢٠) ٦. المكسيك (٠. ١٣) ٧. استونيا (٠. ١٠٧) ٨. لاتفيا (٠. ١٠٣) ٩. ليتوانيا (٠. ١٠٢) ١٠. روسيا البيضاء (٠. ٠٩٨) ١١. أوكرانيا (٠. ٠٩٤) ١٢. بابوا غينيا الجديدة (٠. ٠٨٣) ١٣. قرغزستان (٠. ٠٨٠٢) ١٤. تايلاند (٠. ٠٨٠٠) ١٥. مولدوفا (٠. ٠٧٨) ١٦. زمبابوي (٠. ٠٧٤) ١٧. سيشل (٠. ٠٧٣) ١٨. زامبيا (٠. ٠٧٠) ١٩. كوستاريكا (٠. ٠٦٠) ٢٠. بولونيا (٠. ٠٥٦).

إن هذه الدول جميعها تقريباً ما عدا قرغزستان تبلغ نسبة المسيحيين القاطنين فيها ١٠٠٪ تقريباً.



إن الصلاة تغرس في الأذهان حقيقةَ أنَّ الله تعالى ينفرد بالحاكمية في الأرض، وتجعل الإنسان يشعر بذلك دائماً، إن إقامة الصلوات الخمس المكتوبة في اليوم الواحد تريح الناس بتخليصهم من أعباء المشاغل الشخصية، وتبعدهم عن كل أنواع الهموم الدنيوية في مدة وجيزة، وتسهم في زيادة معاني الاستسلام والشكر والرضا لخالقهم العظيم، وفي الوقت نفسه فإن الإنسان عند سجوده يصبح وجهاً لوجه مع نفسه ويجد فرصة للتوجه إلى العالم الداخلي،يقول «مات سالسمان» -الذي اختار الإسلام فيما بعد وكان في السابق من المبشرين-: «حينما أصلي أجد الطمأنينة والسكينة، وبالأخص في صلاة الجمعة وصلاة

ثم إن نسبة الميول إلى الجناية في الإحصائيات التي تشمل جميع أنحاء العالم يظهر أن الدول التي تؤدى فيها الصلوات تقل النسبة فيها عن التي لا تؤدى فيها الصلوات. هل العالم مدرك لهذه الحقيقة؟ أجل. يتم الآن إجراء دراسات وأبحاث جدية تتعلق بانخفاض معدل الجريمة في بلاد المسلمين. انظروا: Cordova, Ana; "An Examinational Causes of Low Murder Rates in Islamic Societies": American Society of Criminology

وهم يقومون بهذه الأبحاث بجهد كبير ومتواصل وحتى لو أنهم لم يتحدثوا عن ذلك علانية ولم يذكروه بصوت مرتفع. وفي الحقيقة هم لا يربطون ذلك بالصلاة. ربما سيقوم البعض منهم فيما بعد ذلك بقياس نسبة الجرائم في المناطق المحيطة بالمساجد في مدن كلندن وباريس. نرجو ذلك. وفي اعتقادي نتائج هذه الدراسات تجعل العالم يفكر!



الجماعة في المسجد، فتلك الأوقات كانت بالنسبة لي أوقات خاصة تمد روحي بالسكينة والطمأنينة»

ويقول الدكتور تيموثي جيانوتي:

«كأنني عندما أنحني للسجود أجد السلام، وأشعر أن نفسي أكثر أمناً، وكأنني في أجواء سلام، وعندما أسجد أشعر بأني عائد إلى منزلي من طريق طويل، وقد يكون كالوصول إلى الله تعالى، وأنا عاجز عن التعبير عن ذلك بأكثر من هذا، إن الصلاة هي عبارة عن شعور براحة وسلام وسكينة».[٢٢]

إن الصلاة كما أنها الغذاء المعنوي للروح هي علاج مادي للبدن أيضاً. إن تحريك الصلاة لمختلف الأعضاء وثنيها للمفاصل وشدها وإرخائها للعضلات، كل هذا يبعث الحيوية وهذه حقيقة معروفة. ومن طرف آخر فإن الصلاة عامل توازن في حياة المسلمين، وهذه العبادة المؤدّاة يومياً في أوقات معينة ضمن قواعد معلومة، تعوّد الناس على حياة من الانضباط والتوازن.

٢٢. يمكن الاطّلاع على الكتاب التالي فيما يتعلق بحكاية الذين دخلوا في الإسلام فيما بعد. البروفسور . د. علي كوسا.

Conversion to ıslam: A Study of Native British Converts, London: Keagan Paul ınternational, .١٩٩٦



وبإمكان المسلمين تأدية صلاتهم على نحو فردي أينما شاؤوا، لكن الإسلام يحثهم على تأديتها مجتمعين في مكان واحد، إذ إن الصلاة مع الجماعة تقوي شعور الانتماء إلى الأمة حين تعبد الله تعالى في صفٍّ واحدٍ لا يشوبه فوارقُ من عرق ولون ولغة ومكان وموقع، مع اتحاد وتعاون واجتماع. ففي جو الجماعة المتشاركة في الفكر والهدف ذاته تستقر في القلوب مشاعر الأخوة وتحيا حماسةٌ دينيةٌ تتجاوز الفروق بين الأفراد مرحلة مهمة.

وفي الحقيقة فإنّ الصلاة في أوقاتٍ خمس يومياً قليلة للغاية بالنسبة للإنسان وهي وظيفة سهلة جداً في التطبيق، فالوقت الذي تأخذه تأدية الفريضة ليس إلا أربعاً وعشرين دقيقة ضمن الأربع وعشرين ساعة حيث يبتعد الإنسان عن المشاغل الدنيوية ويجلس بين يدي ربه، وهذه التضحية الضئيلة تعود على الإنسان بالكثير من الفوائد المادية والمعنوية.

٢. الصوم وحِكَمُهُ

وهو عبادة تؤدى بالابتعاد عن الطعام والشراب والشهوات الجنسية من الفجر وحتى غروب الشمس، ويجب صيام ٢٩ أو ٣٠ يوماً من شهر قمري كل سنة وذلك في شهر رمضان.



إن الصيام يسمو بالجانب الأخلاقي والتعليمي بأحواله كالصبر والإرادة والابتعاد عن الرغبات النفسية والتي تعد من الأمور الضرورية في الحياة. وهو درع حصين يحمي شرف وكرامة الإنسان من شهواته التي لا تنفد من طعام وشراب وشهوة.

والصوم أيضاً يوصل صاحبه إلى محاسن الأخلاق كالعزم والثبات والقناعة والرضا والجلد والصبر. ويذكّرنا الصيام بقيمة النعم التي أكرمنا الله بها بجعْلنا نذوق طعم الحرمان والجوع. كما أنه يملئ قلوبنا بمشاعر الحمد والشكر لله تعالى والرحمة والعون لعباده تعالى، وبهذا يكون الصومُ العلاجَ الأكثر فعالية لإزالة الأنانية والحقد والحسد والغيرة التي تغمر المجتمع بالتوتر والاضطرابات في الحياة الاجتماعية، وبالتالي فإن الصوم ليس عبادة خاصة بهذه الأمة بل قد فرض على الأمم السابقة، يقول الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ اٰمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُم لَعَلَّكُم تَتَّقُونَ. اَيَّامَاً مَعْدُوْدَاتٍ...﴾ (البقرة، ١٨٣-١٨٤)

ولا بدَّ للصائمِ من الابتعاد عن السلوكيات السيئة كالكذب والافتراء والغيبة والنميمة، وعن الكلمات الخبيثة مثل الكفر



واللعنة، وعن الأفعال القبيحة، والخصومات، وعن الآثام، فيستفيد من الأثر المعنوي للصوم، ويوصي رسول الله ﷺ الصائم بأن يهدأ ويسكت إن شتمه أحد أو سبه، وكذا يكون الصائم قد ابتعد عن الأخلاق السيئة.

إن الصوم يجعل الإنسان أَصَحَّ وأكثر إنتاجاً، ويمكننا مشاهدة هذا حتى في الأشجار، حيث إنها تُسقط أوراقها في الخريف وترقد في ثبات شتوي حتى أنها لا تأخذ ماء لإرواء جذورها إلى أن يأتي الربيع ويذوب الثلج، وحينما يأتي الربيع بعد هذه الأشهر التي مضت بالصيام تكتسب إنتاجية أكبر مما سبق، ويمكن فهم ذلك من وفرة أوراقها وأزهارها. والمعادن أيضاً بحاجةٍ إلى الصيام؛ بإيقاف المحركات والآلات بعد مدة طويلة من العمل، فهذه الاستراحة تسهم في استعادتها طاقاتها السابقة.

إن المراكز الطبية تُعلن أن صيام أقل من ٣٠ يوماً يخلو من التأثير والفائدة، وإذا بلغ أكثر من ٤٠ يوماً اعتاد الجسم عليه ولن يعود بأي فائدة على الجسم على خلاف الانقطاع عن الطعام والشراب بين الحين والآخر. ثم إنه يعالَج المصابون بالأمراض المزمنة في الغرب مؤخراً بأساليب معالجة جديدة ومنها الصيام الذي تختلف مدته حسب الوضع الصحي للمريض.[٢٣]

٢٣. البروفسور د. م. حميد الله، مدخل إلى الإسلام، ص. ١٠٤.



إن الصيام يسهم في عمل الملكات الذهنية والقلبية ويجعلها أكثر صحة وسلامة. ولنذكر بأن غاية الصوم ليست تعذيب الجسم وإلحاق الأذى به، فقد أوصى الرسول ﷺ بالسحور للصيام والتعجيل بالفطور،[٢٤] مما يعني أن مقصد الصيام الرئيسي تأدية حق العبودية لله تعالى والوصول إلى التقوى بتربية النفس، وتأسيس نفس مطمئنة ترضي الله تعالى بتطوير الفرد والمجتمع.

٣. الزكاة، والصدقة، والإنفاق وحِكَمُها

والزكاة عبارة عن إعطاء الأغنياء المالكين نصاب الزكاة مقداراً معيناً يبلغ ٢,٥٪ من أموالهم للفقراء والمساكين والعاملين على جمع الزكاة والمؤلفة قلوبهم والعبيد الذين يعملون لتحرير رقابهم من الرق والمدينين وكل من يعمل في سبيل الله وابن السبيل. (التوبة، ٦٠)

وتُعدُّ الدواب والمحاصيل الزراعية من أموال الزكاة، وكلّ منها مقدّرة بحسبها، فزكاة المحاصيل الزراعية العُشُر، وكلمتا الصدقة والإنفاق -وإن كانتا تستعملان بمعنى الزكاة الواجبة في بعض المواطن في النصوص- فإنهما تفيدان معنى مساعدة المحتاجين نافلةً على الأغلب.

٢٤. انظر: البخاري، الصوم، ٤٥؛ مسلم، الصيام، ٤٨؛ الترمذي، الصوم، ٧٠٨/١٧.



إن الزكاة تقي الحياة الاجتماعية بحيلولتها دون طغيان الأغنياء وانخداعهم بأموالهم، وتمنع من أن يُضْمِر الفقراء في قلوبهم مشاعر سلبيةً من حقد وحسد للأغنياء. وتحقق الترابط في المجتمع وتنشر المحبة والوئام وتقرب الفجوة بين الفقراء والأغنياء إلى حد كبير، وتتغلب على كثير من المضارِّ الناجمة عن هذه الفجوة، وإذا أردنا أن نضرب لذلك مثالاً فإن الخليفة عمر بن عبد العزيز لما أرسل عماله إلى إفريقيا رجع عماله دون أن يوزعوا أموال الزكاة لأنهم لم يجدو من يستحق أخذ الزكاة لذلك قام الخليفة بشراء العبيد بأموال الزكاة وأعتقهم(٢٥).

إن الزكاة جسر بين الناس من مختلف المستويات، وموحِّد لصفوف المجتمع، ولذا يقول الرسول ﷺ:

"الزَّكَاةُ قَنْطَرَةُ الْإِسْلَامِ" (الطبراني، المعجم الأوسط، ٨، ٣٨٠)

ثم إن الثواب الذي تكسبه الزكاة لمؤديها أكبر من السعادة التي تلحقها بالفئة المتضررة في المجتمع. وفي الحقيقة فإن الزكاة التي تفيد معنى النظافة والنقاء والزيادة والبركة تنقّي الإنسان من بعض أمراض القلوب ومن الشرور، وتجعل البركة في المال بتنظيفه.(٢٦).

---

٢٥. انظر: البوطي، فقه السيرة، بيروت ١٩٨٠، ص: ٤٣٤.

٢٦. انظر: التوبة، ١٠٣؛ سبأ، ٣٩.



إن عبادة الزكاة تهذِّب مشاعر التّملك وحبّ المنفعة والمصلحة لدى الإنسان.

والزكاة أداء للشكر الواجب على أصحاب الأموال والثروات مقابل ما مَنَّ الله عليهم من نعمه، ويَعِدُ الله تعالى بأنه سيزيد من نعمه إن أدّى الإنسان شكرها، ومن كفر نعمَه فسيلحقه عذاب شديد.[٢٧]

وثمة فوائد اقتصادية مفيدة جداً للزكاة؛ كانتقال الثروات على الدوام، واستثمارها، ووفرة الإنتاجية، وتحريك السوق، وتنشيط البيع والشراء.

وبالزكاة أيضاً تُفتح الأبواب إلى أعمال الخير، بمدّ يد العون إلى العاملين في سبيل الله تعالى، كما تُهيّئ لتطور وتقدم العلم بمساعدة طلاب العلم.

وإعطاء الزكاة أفضل من أخذها، عن حكيم بن حزام ﵁، عن النبي ﷺ قال:

"الْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى، وَابْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ، وَخَيْرُ الصَّدَقَةِ عَنْ ظَهْرِ غِنًى، وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللَّهُ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ" (البخاري، الزكاة، ١٨/ ١٤٢٧؛ مسلم، الزكاة، ٩٤-٩٧، ١٠٦، ١٢٤)

٢٧. انظر: إبراهيم، ٧.



ولذا يحاول المسلمون الراغبون بالارتقاء إلى مراتب أعلى أن يبذلوا جهداً كبيراً حتى يكونوا هم اليد التي تعطي، وبالنتيجة فإن الناس يكتسبون العزم على العمل والكسب بتخلصهم من البطالة والكسل.

وفي حال لم تؤدَّ الزكاة انقلبت جميع هذه الأمور وظهرت أضرار جسيمة على الصعيدين الفردي والجماعي. إن داء البخل الذي لم يُعالج بتأدية الزكاة يجر إلى عذاب في الآخرة كما أنه يترك صاحبه يتخبط في بلاء وضنك من العيش، يقول الرسول ﷺ:

"مَنْ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا فَلَمْ يُؤَدِّ زَكَاتَهُ، مُثِّلَ لَهُ مَالُهُ شُجَاعًا أَقْرَعَ، لَهُ زَبِيبَتَانِ يُطَوَّقُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ، يَأْخُذُ بِلِهْزِمَتَيْهِ - يَعْنِي بِشِدْقَيْهِ - **يَقُولُ: أَنَا مَالُكَ أَنَا كَنْزُكَ"**. ثم تلا **﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ...﴾** (آل عمران، ١٨٠) (البخاري، الزكاة، ٣/ ٤٥٦٥)

لقد أخبرنا الصادق المصدوق بأنه سيصيب الناس المحن والبلاء حين يُنظر إلى الزكاة على أنها عبء ثقيل في الجتمع، وتُهمَل من المجتمع بمرور الوقت،[٢٨] ولقد قال الرسول ﷺ مرة في حديث عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال:

٢٨. انظر: الترمذي، الفتن، ٣٨/ ٢٢١٠، ٢٢١١.



"...وَلَمْ يَمْنَعُوا زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ، إِلَّا مُنِعُوا الْقَطْرَ مِنَ السَّمَاءِ، وَلَوْلَا الْبَهَائِمُ لَمْ يُمْطَرُوا..." (ابن ماجه، الفتن، ٢٢/ ٤٠١٩؛ الحاكم، المستدرك، ٤، ٥٨٣ / ٨٦٢٣)

٤. الحج وحِكَمُه

وهي عبادة تؤدى بزيارة من استطاع من المسلمين من ذوي المال والصحة الكعبةَ المشرفة في مكة، والقيام ببعض الأعمال في أيام معلومات، ولمرة واحدة في العمر. يتناول الناس في علم الحج عبادة عظيمة ويمارسون الدعاء والذكر، حيث يستحضرون الله تعالى في جميع حركاتهم ويعمِّقون حبه تعالى في قلوبهم، ويحصلون على أوصاف حسنة كالتواضع والصبر والاستسلام والتعاون والإخلاص والانضباط في الوقت والحركة والاستعداد للموت ويوم القيامة وعدم إلحاق أي أذى بأي نبات وكائن حي واجتناب سوء الظن بأخيك، لأن الحج المتضمن رموزاً معينةً باعتبار وجهته الخارجية؛ هو في حقيقته عبارة عن حركات وأفعال تؤدى في أماكن مختلفة تجري بتمارين روحية شتى، وبالتالي فمن المؤكد أنه يمكن لكل أحد الاستفادة منه من جهة واحدة أو أكثر.



يوجّه الحج الإنسان إلى الحياة القلبية، لأن هذه العبادة اللطيفة والدقيقة مليئة بمظاهر الرحمة والمحبة كمنع اصطياد صيد ما أو الإشارة إلى مكانه بل حتى القضاء على ذبابة، ومنع قطف ورقة خضراء.

وفي الحج يكون الناس في اتفاقٍ قلبيٍّ باجتماعهم في مكان وزمان واحد، فتزول مفاهيم كالوطن واللون والهيئة والزي، وتحل مكانها الأخوة الإسلامية، فهناك يقف الآمر والمأمور والغني والفقير والعالم والجاهل والسلطان والرعية في صف واحد وساحة واحدة، حيث يستمع المسلمون هناك إلى آلام ومشاكل بعضهم البعض ويبعثون برسائل إلى إخوانهم البعيدين.

ثمّة عبادات أخرى غير التي ذكرناها، ولكل منها الكثير من الحكم والفوائد.

إنّ حكم العبادات وفوائدها غير محدودة بما أوضحناه، فلها الكثير من الأسرار التي لا يمكننا إدراكها ولكن قسماً منها ستتولى الأيام إظهاره لنا، والقسم الآخر سنفهمه في الآخرة.

ومما لا شك فيه أن المسلمين حينما يؤدون العبادات لا يفكرون بفوائدها الدنيوية، فإنهم يقومون بها لكسب رضا الله تعالى، لكن الفوائد التي تكلمنا عن بعضها هي من إحسان وإكرام



الله تعالى لعباده. ومعرفة هذه الحكم وتأملها يُكسب الإنسان حرصاً وحماساً مختلفين.

وعند النظر في العبادات التي تكلمنا عنها بإيجاز، نرى أن الإسلام متصل بجميع نواحي الحياة ومتداخل بها، فالإسلام دين أوسع من أن يحتويه يوم واحد أو زمان معين. فهو محيط بكل نواحي الحياة من الولادة وحتى الممات بل وما بعد الموت من الحياة الأخروية.





ج. بعض المحرمات في الإسلام وأضرارها

لقد أحل الله تعالى في قرآنه الكريم لعباده الاستفادة من الأشياء الطيبة والنظيفة، ووبّخ مَن قام بتحريم ما أحله. فيقول الله تعالى مشيراً إلى أنه لا يحرم ما يعود بالفائدة على الناس بل يقتصر تحريمه على ما فيه ضرر وأذى:

﴿قُلْ اِنَّما حَرَّمَ رَبّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالاِثْمَ وَالبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَاَنْ تُشْرِكُوا بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَاَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُوْنَ﴾ (الأعراف، ٣٣)

إن المعاصي والمحرمات كالسموم التي تجرُّ الإنسان إلى الهلاك المادي والمعنوي، ولكن كلاً من الشيطان والنفس يزينانها للإنسان فتظهر طيبة ومحببة. فالناس يحولون حياتهم المادية والمعنوية إلى الاضطراب والاختلاط بوقوعهم في براثن وشباك الشيطان والنفس، مع أن الأمور المحللة أكثر عدداً وفائدة، إذ إن الأصل في الأشياء الإباحة، ما يعني أنه إن لم يرد



دليل ديني قوي على حرمة أمر ما فهو حلال، ولذا فإن الأشياء المحرمة والمحظورة قليلة جداً كونها من قبيل الاستثناء.

وإلى جانب هذا فإن الإسلام يبين الأحسن والأنظف، ويضع البديل المشروع، ولكن الإنسان يتخلى عن كل هذه الأمور المحللة ويرغب بالمحرمات المحدودة.

يمكن إباحة بعض المحظورات مؤقتاً إذا وجدت ضرورات وشروط وصعوبات ومخاطر مهددة للحياة.[٢٩] ولكن من المحقق أن تعيين وتقدير الضرورة والحاجة ينبغي فيه وضع المقاسات الشرعية والموضوعية نصب الأعين، بدلاً من القناعات الفردية والشخصية.

إن مقاصد الإسلام في المحرمات توفر للناس على الصعيدين الفردي والاجتماعي حماية من كل انحراف وخطأ، كما تؤمن لهم العيش بطمأنينة، ولقاءهم ربهم ووجوههم غير مسودة، وعلى هذا تكون المحرّمات في الإسلام من ثمرات كونه دين الرحمة.

ومن ناحية أخرى فإن دين الإسلام قدّم الأنظمة الاعتقادية والأخلاقية والحقوقية، وجعلها متصلة ببعضها البعض ضمن

٢٩. انظر: البقرة، ١٧٣؛ المائدة، ٣، ٦٠؛ الأنعام، ١٤٥؛ النحل، ١١٥.



إطار من التكامل المعقول والتوازن. فأسسه الاعتقادية والأخلاقية التي سنّها أُيِّدَت بالعقوبات الشرعية.

ثمّة الكثير مِن الحِكَم والأسباب التي نعلمها أو نجهلها للمحرّمات في الإسلام. والالتزام بترك المحظورات هو قبل كل شيء من قبيل الخضوع لامتحان جدي من الله تعالى. وإلى جانب هذا فإن ترك المحظورات يوفّر للعباد الكثير من الفوائد الدنيوية والأخروية، وسيكون من المناسب التحدث عن بعض المحرمات والأضرار التي تنجم عنها، بما في ذلك أمثلة على رحمة وشفقة الله تعالى بعباده في هذا الشأن:

١. الربا

إن الربا المعتمد على تحصيل المال دون مقابل وإن كان الظاهر منه أنه يساعد الناس ويسهل عليهم إلا أنه يسيء لعجز الناس عن أدائه في أوضاعهم الصعبة، ولذا فإنه انتهاك لحق كبير للإنسان، وهو ورم خبيث يخمد الأحاسيس الدينية والأخلاقية وينخر الاقتصاد ويجعله يتآكل، ويتسبب بزيادة قوة الغني وسحق الفقير أكثر، وبهذا تظهر فجوات عميقة بين فئات المجتمع، في حين أن ما يعبر عنه الاقتصاديون المشهورون يدل على أن المجتمع الأفضل من الناحية الاقتصادية هو الذي ينعدم فيه التضخم والفائدة.



واكتساب المال بالمال بالربا من غير صرف مجهود يعود بالضرر على الفرد والمجتمع، وإن كان هذا الأمر يُعجب بعض الناس، ثم إنه يقلب العلاقات بين العمالة ورأس المال رأساً على عقب في المجتمع على المدى البعيد، فإن نتيجته ستعود بضرر كبير على آكلي الربا بالذات أيضاً.

لقد بين الله تعالى في قرآنه الكريم أنه ورسوله أعلنا الحرب على من اشتغل بالربا،[٣٠].

ويقول في آية أخرى:

﴿الَّذِيْنَ يَاْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُوْمُوْنَ اِلَّا كَمَا يَقُوْمُ الَّذِيْ يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ المَسِّ...﴾ (البقرة، ٢٧٥)

ولقد أوضح النبي ﷺ أن شرَّ ما يكتسبه الإنسان هو المال الذي يحصل عليه من الربا[٣١].

عَنْ جَابِرٍ رضي الله عنه قَالَ:

«لَعَنَ رَسُولُ اللهِ ﷺ آكِلَ الرِّبَا، وَمُؤْكِلَهُ، وَكَاتِبَهُ، وَشَاهِدَيْهِ» وَقَالَ: "هُمْ سَوَاءٌ"[٣٢].

٣٠. البقرة، ٢٧٨، ٢٧٩.

٣١. ابن أبي شيبة، ٧، ١٠٦/ ٢٤٥٥٢؛ الواقدي، المغازي، ٣، ١٠١٦؛ ابن كثير، البداية، ٥، ١٣ ـ ١٤.

٣٢. مسلم، المساقاة، ١٥٩٨/١٠٦؛ الترمذي، البيوع، ٢/ ١٢٠٦، ابن ماجة، التجارات، ٥٨.



إنَّ لَعن النبي ﷺ لكل من يساعد في الربا، ما هو إلا بيان واضح لعدم وجود أي مكان للربا في المجتمع الإسلامي وأنه ليس لأحد التعرّض له، ولإغلاق جميع أبواب الشر والفساد.

إن الربا معصية محرمة في جميع الأديان السماوية، لأن ضرره واضح بَيِّنٌ، وتفيد الآيات الكريمة تحريمه على اليهود أيضاً.[٣٣]

إنّ من غير السليم التفكير باستحالة وجود اقتصاد خالٍ من الربا، إن وجود اقتصادٍ خالٍ من الرّبا ممكنٌ جداً، والمجتمعات التي حقّقت ذلك موجودة، ولقد شدَّد الإسلام على تحريم الربا وأوصى مقابل ذلك باستثمار المال وتكثيره على أساس الشّراكة، لأن هذا أساس لاستفادة الجميع منه، وإلى جانب هذا حثّ على الإقراض لوجه الله تعالى (القرض الحسن) قدر الإمكان، وعَدَّ القرض المُعطى لصاحب الحاجة أفضل من الصدقة، ومن جهة أخرى أكسب المجتمع استقراراً ونظاماً اقتصادياً بأمره بالزكاة والصدقة.

٢. الخمر والمخدرات

إن المشروبات المحتوية على الكحول والمخدرات مواد ضارة تنفر منها الطبيعة والفطرة البشرية. فالأصل أن يكون

٣٣. النساء، ١٦٠ ـ ١٦١.



الإنسان واعياً يقظاً، ومن غير المقبول أن يكون في حالة من الخمول والكسل، فعاقبة ترك اليقظة هو الوقوع في الانحراف على العموم، فوقوع من يتعاطى الخمر والمخدرات ويدمن عليها وكأنها أمر طبيعي في الانحراف أمر لا مفر منه.

إن الخمر سبب في فساد كبير يلحق الفرد والمجتمع، فشُرب الخمر يضرّ بمَلَكَة العقل، في حين أنَّ جميع مصالح الدنيا والآخرة لا تتحقق إلا بالعقل، وبغياب العقل ينغمس الإنسان في أخطاء لا تخطر على بال. فكما أن شرارة واحدة تسقط في مادة كحولية سرعان ما تلتهب، فكذا يكون من السهل جداً اشتعال نار الشرّ في الأدمغة والقلوب المدمنة على الكحول.

إن الخمر من الأشياء المؤدية للسكر المادي والمعنوي كالقمار وألعاب الحظ، وهي من الأسلحة الأشدِّ تأثيراً للشيطان الذي يعد العدو الأبدي للإنسان، ومِن غير الممكن وصول الإنسان إلى الفلاح ما لم يجتنب هذه الأشياء، ثم إن الشيطان يضع بين الناس الحقد والخصومة والعداوة ويوقع بعضهم ببعض، وهو بمنعهم من ذكر الله والصلاة والعبادات يجعلهم فقراء الآخرة، ثم إن الطرف الخاسر في لعبة القمار يتغلب عليه الحرص على الفوز مما يجعله يكرر اللعبة مراراً، وأخيراً تظهر الكثير من الاضطرابات الفردية والاجتماعية.



ومنهم من يخدع الناس بالفأل بإخبارهم أموراً من الغيب الذي ليس لأحد غير الله تعالى العلم به، وبذلك يُعطِّلُ العقلَ الذي يُعَدُّ أحدَ النعم العظيمة.

وباختصار فإن العادات السيئة تقضي على حياة الناس الدنيوية والأخروية، ولذلك فإن طريق الخلاص من الندامة في العالَمين هو اجتناب ما حرمه الله تعالى. (المائدة، ٩٠-٩١)

يقول البروفسور الروسي راتشينسكي هذا الكلام المحتوي على العبرة:

« يمكث الشيطان في قارورة الخمر ويأخذ كل ما في أيدي وأكفّ مدمني الخمر، بل إنه ينتزع منهم آخر قمصانهم التي يرتدونها واللقمة الأخيرة لأطفالهم الذين في حجورهم، وغير هذا فإن الشيطان القابع في القارورة يسرق من الناس وعوائلهم الذين صيرهم عبيداً له صحتهم وشرفهم وضميرهم وفرحهم وسعادتهم كما يأخذ السكينة منهم. وكما أنه يكسر عزيمة الناس وأحاسيسهم فكذا يحرمهم من مختلف أنواع الكسب.

ولتفكروا ولو لمرة واحدة في أن الجهود المبذولة في إنتاج المشروبات الكحولية والخمر كلها تذهب سُدى، ولتحسبوا جيداً مقدار الطعام والشراب والجهد الضائع دون جدوى. ولو جمعت مليارات الكيلوغرامات مِن الخبز والخوخ والتين



والعنب الملقاة كلها لَمَا وجدت في الدنيا مجاعة أو غلاء في الأغذية، ولَوُجِدَ كلّ ما يغذي من الطعام ويُذهب جوع الحيوانات فضلاً عن الناس.

وميزانية الشيطان الذي في القارورة مجهولة، وتابعو الشيطان يدفعون ضرائب الخمر التي استهلكوها. لكن هؤلاء أنفسهم يعجزون عن تأدية ديونهم التي لا بدّ عليهم من إيفائها لأصحابها، والشيطان يحصِّلُ ما يريده دائماً من غير نقص، وحتى لو لم يتوفر المال في أيدي هؤلاء الناس فإما أن يسرقوا أو يقتلوا أو يتخلّوا عن شرفهم وشرف عائلاتهم، ويدفعون الضريبة للشيطان أياً كان الأمر.

إن حياة الآلاف من هذا الإنسان الكريم المختار قد دُمِّرت بسبب الكحول، وهؤلاء النَّاس لطالما أضاعوا الكثير من القِيَم التي يمتلكوها، وكما أنه لا يمكن بناء أبنية متينة وكبيرة فوقَ المستنقعات، فإنه كذلك من غير الممكن توفير نظام دائم وتأسيس حياة ملؤها السّكينة في أمة مُدمِنة على الخمر. ولذا يلزم البدء بجعل الأمّة بأكملها تفيق وتصحو مِن هذا الوضع الكارثي، وذلك بالأنشطة الإسلامية»[٣٤]

إن تقارير البحث الأخير لمنظمة الصحة العالمية والتي شملت ثلاثين دولة أفادت أن ٨٥ ٪ من الجنايات (٦٠-٧٠٪

٣٤. غريغوري بتروف، المعلم المثالي، اسطنبول ٢٠٠٥، ص: ٤٨ ـ ٥٢.



منها عائدة إلى العائلة) و٥٠ ٪ من حالات الاغتصاب و٥٠ ٪ من حوادث العنف و٧٠ ٪ من الذين يضربون زوجاتهم (العنف العائلي) و٦٠ ٪ من العاطلين عن العمل و٤٠ ـ ٥٠ ٪ من حوادث المرضى عقلياً كلها يعود السبب فيها إلى الكحول.

وتظهر الأعطال العقلية في ٩٠ ٪ من أطفال مدمني الكحول، ونسبة خطر حصول امرأة مدمنة على الكحول على طفل مُعاق عالية تبلغ ٣٥ ٪، لأنّ الكحول تمنع كبر الرحم والنمو بعد الولادة، وتتسبب بتخلّف عقلي في الأطفال وقصرٍ في الطول واضطراباتٍ في السلوك، إنّ أطفال المُبتلين بالخمر لعيشهم في عائلة تحيط بها أجواء من التزاحم والنزاع والشدة باستمرار فإن خطر زيادة الانهيارات العاطفية والاضطرابات السلوكية عندهم مرتفع جداً، وبالتالي فإن أكثر هؤلاء الأولاد لن يكونوا ناجحين في المجتمع.[٣٥]

وحسب التقرير الرسمي الصادر عن الحكومة البريطانية فإن الشجار والعِراك والجراح وتكاليف المشافى وغيرها الناجمة عن استهلاك الكحول حمّلت اقتصاد بريطانيا الكثير من العبء الذي يبلغ ٢٠ مليار استرليني سنوياً (ما يعادل ٣٠ مليار دولار تقريباً.[٣٦]

٣٥. موسى طوسون، الموسوعة الإسلامية الديانية، مادة « الخمر»، ٢١، ٤٦٣.

٣٦. "Soberingthoughts about aclaim" SeanCOUGHAN, Saturday27 March2004, The Guardin



يقول الرسول ﷺ:

"لَا تَشْرَبِ الْخَمْرَ، فَإِنَّهَا مِفْتَاحُ كُلِّ شَرٍّ" (ابن ماجة، الأشربة، ١/ ٣٣٧١)

"مَا أَسْكَرَ كَثِيرُهُ، فَقَلِيلُهُ حَرَامٌ" (أبو داود، الأشربة، ٥ / ٣٦٨١؛ الترمذي، الأشربة، ٣ / ١٨٦٥)

ولذا يجب عدم الالتفات إلى القائلين "لا بأس بشرب القليل غير المسكر"، فالمقدار واضح للغاية، فما كان الكثير منه مسكراً فقليله له الحكم نفسه، يريد الإسلام الحيلولة دون الشر بأحسن ما يمكن بإغلاقه الطرق المؤدّية إلى الشرِّ جميعها، ولا يتخذ الحلول النظرية غير المتلائمة مع الحياة العملية هدفاً، يحرّم المحظورات بحكمةٍ كبيرة ويضع رادعاً ويجازي المتجاوزين لذلك بالعقوبات الأنسب، وهذا يبين مقدار القيمة التي أكرم بها ديننا الإنسان، ويوضح ما أحاطه من شفقة ورحمة غير متناهيتان.

٣. الزنا

إنّ الزّنا سلوك رفضه العقل البشري وأنظمة الأخلاق والحقوق وجميع الشرائع السماوية منذ الأمد البعيد كلّياً وحَكَمَتْ بخطئه. يتسبب الزنا باختلاط الأنساب وتشتت العائلة واهتزاز جذري للقيم المعنوية والأخلاقية في المجتمع بانحلال



روابط كالقرابة والجوار والصداقة. ويجعل كرامة الإنسان وشرفه تحت الأقدام بتصييره أسيراً لمتعه الجسدية.

ثم إن البغاء يفتح الطريق لانتشار الاتِّجار بالنساء ولاستخدامهن مصدراً للرزق ولظهور سماسرة النساء، ويقضي على شرف وكرامة الأنوثة والأمومة.

ومن ناحية أخرى فإن للزنا الكثير من الأضرار على الصحة، ولوحظ إصابة الناس المنغمسين في مستنقع الزنا بالعديد من الأمراض المعدية كالزهري والسيلان، ومرض الإيدز المميت الذي عجز الأطباء في يومنا على إيجاد علاج له ينجم عن الزنا على الأغلب.

والحق تعالى يحب عباده كثيراً ولا يريد وقوعهم في مثل هذا الأمر البشع، ولذا يحظر الاقتراب منه فضلاً عن تحريمه، يقول الله تعالى في هذه الآيات الكريمة:

﴿**وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ**﴾ (الأنعام، ١٥١)

﴿**وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا اِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيْلًا**﴾ (الإسراء، ٣٢)

أي ينبغي عدم الاقتراب من أي طريق ووسيلة تمهّد للزنا.

يبين الرسول ﷺ كم للنظرة من ضرر على القلب، فيقول في الحديث الشريف:



"النَّظْرَةُ سَهْمٌ مِنْ سِهَامِ إِبْلِيسَ مَسْمُومَةٌ فَمَنْ تَرَكَهَا مِنْ خَوْفِ اللَّهِ أَثَابَهُ جَلَّ وَعَزَّ إِيمَانًا يَجِدُ حَلَاوَتَهُ فِي قَلْبِهِ" (الحاكم، ٤، ٣٤٩ / ٧٨٧٥؛ الهيثمي، ٨، ٦٣)

ولذا فإن الإسلام يأخذ التدابير اللازمة التي تكوِّن المرحلة الأولى؛ من عدم كشفِ العورات بل سترها على النحو الذي عرّفهم به الدين، إلى جانب تجنب إحداث حركات تثير الطرف الآخر، وعدم اختلاء الرجل الأجنبي بامرأة، ومنع التكشف والفحش، وشجبه الكلام المثير للناس، والنظر والعلاقات القريبة بين الجنسين، لأنها أمور ممهِّدة للزنا من هذا النوع.

ثم إنّ الإسلام لم يكتف بهذا بل يكلف العائلة والمجتمع بتربية الأطفال وعدم تأخير الزواج من غير ضرورة وتيسير الزواج والمحافظة على القيم الدينية والأخلاقية.

وحسب ما فهم من هذا فليست غاية الإسلام معاقبة المذنبين، وإنما توفير حياة من الأمن والطمأنينة للناس من خلال الحيلولة دون ظهور وسائل المعصية في المجتمع، وبذلك فمن النادر جداً العثور على حوادث أقيم فيها حدّ الزنا على مدى التاريخ الإسلامي، ومن جهة أخرى فإن الحق تعالى قد يريد حماية بعض العاصين من أضرار أكبر وعذاب أبدي بابتلاءهم ببعض المصائب الدنيوية لتنبيههم، فيرسل إلى الزناة أيضاً بعض



المصائب، يخبر النبي ﷺ عن ذلك بقوله:

"...لَمْ تَظْهَرِ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ، حَتَّى يُعْلِنُوا بِهَا، إِلَّا فَشَا فِيهِمُ الطَّاعُونُ، وَالْأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَضَتْ فِي أَسْلَافِهِمُ الَّذِينَ مَضَوْا..." (ابن ماجه، الفتن، ٢٢/ ٤٠١٩؛ البيهقي، شعب الإيمان، ٥، ٢٢)

إن الزنا الذي يُلحق بصاحبه ضرراً كبيراً وشيناً وسوء سمعةٍ يوم القيامة ويسوقه إلى عذاب أليم وشديد ومروّع، يقول الرسول ﷺ:

"إِنَّهُ أَتَانِي اللَّيْلَةَ آتِيَانِ، وَإِنَّهُمَا ابْتَعَثَانِي، وَإِنَّهُمَا قَالاَ لِي انْطَلِقْ، وَإِنِّي انْطَلَقْتُ مَعَهُمَا، ... فَأَتَيْنَا عَلَى مِثْلِ التَّنُّورِ، فَإِذَا فِيهِ لَغَطٌ وَأَصْوَاتٌ " قَالَ: «فَاطَّلَعْنَا فِيهِ، فَإِذَا فِيهِ رِجَالٌ وَنِسَاءٌ عُرَاةٌ، وَإِذَا هُمْ يَأْتِيهِمْ لَهَبٌ مِنْ أَسْفَلَ مِنْهُمْ، فَإِذَا أَتَاهُمْ ذَلِكَ اللَّهَبُ ضَوْضَوْا» قَالَ: " قُلْتُ لَهُمَا: مَا هَؤُلاَءِ؟ ... وفيه: وَأَمَّا الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ العُرَاةُ الَّذِينَ فِي مِثْلِ بِنَاءِ التَّنُّورِ، فَإِنَّهُمُ الزُّنَاةُ وَالزَّوَانِي..." (البخاري، التعبير ٤٨/ ٧٠٤٧، الجنائز ٩٣؛ الترمذي، الرؤيا، ١٠ / ٢٢٩٥)

ثم إن أفعالاً غاية في السوء كاللواط والسحاق هي من الكبائر أيضاً كالزنا تماماً، ويدرك مدى سوء وخطورة هذا كل صاحب عقل سليم.

إن الإسلام حرم بشدة الذنوب الكبيرة التي تلحق أضراراً فاحشة من وجوه عدة، ومنها عدا ما سردناه هنا: قتل النفس، والسحر، وعقوق الوالدين، وأكل مال اليتيم، وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذْف المُحْصَنَاتِ المُؤْمِنَاتِ الغَافِلاَتِ، والكذب، والظلم، والخيانة، والتكلم بحق الناس بما لا يسرهم في غيبتهم (الغيبة)، والافتراء، والسرقة.[٣٧]



٣٧. انظر: البخاري، الشهادات ١٠، الوصايا ٢٣؛ مسلم، البر ٥٥، ٥٦؛ أبو داود، الأدب، ٣٥ / ٤٨٧٥؛ أحمد، ٣، ١٣٥، ١٥٤.



١ . العناية بالبيئة

يخبر الحق تعالى أنه سخّر كل ما يحيط بنا لخدمة البشر، فعلينا أن نؤدي شكر هذه النعم بحق. ولذا يجب علينا التعامل مع محيطنا على أساس الأمانة والمسؤولية، فاستخدام المحيط بلا حدود، وإسرافه وتخريبه يعَدُّ من الجحود الذي سيعود بالضرر علينا، يقول الله تعالى:

﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ اَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيْقَهُم بَعْضَ الَّذِيْ عَمِلُوا لَعَلَّهُم يَرْجِعُونَ﴾ (الروم، ٤١)

في حين أن الله تعالى أمر من قبل بقوله:

﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ المِيْزَانَ أَلَّا تَطْغَوْا فِيْ المِيْزَانِ﴾ (الرحمن، ٧ – ٨) ولكن الناس لم يتعظوا بذلك وهم يتحملون عاقبة ذلك الآن.



يتعامل المسلم مع الطبيعة بالسكينة والجمال التي تنعكس من قلبه على سلوكياته في الخارج، فهو حريص على ألَّا يؤذي أي مخلوق.

عن أبي قتادة ﷺ أنه كان يُحَدِّثُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مُرَّ عَلَيْهِ بِجِنَازَةٍ فَقَالَ:"**مُسْتَرِيحٌ وَمُسْتَرَاحٌ مِنْهُ**"،

قَالُوا: «يا رسول الله، ما المستريح؟ والمستراح منه؟»

قَالَ: "**العَبْدُ المُؤْمِنُ يَسْتَرِيحُ مِنْ نَصَبِ الدُّنْيَا وَأَذَاهَا إِلَى رَحْمَةِ اللَّهِ، وَالعَبْدُ الفَاجِرُ يَسْتَرِيحُ مِنْهُ العِبَادُ وَالبِلاَدُ، وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ**"

(البخاري، الرقاق، ٤٢/ ٦٥١٢؛ مسلم، الجنائز، ٦١؛ النسائي، الجنائز، ٤٨)

هذا يعني أن المخلوقات التي نظن أنها لا حياة فيها تمتلك شعوراً وإحساساً، ومِن أدلّة ذلك هذه الرواية عن ابن مسعود ﷺ قال: «إنَّ الجبل لينادي الجبل: أي فلان، هل مَرَّ بك اليوم أحد ذَكَرَ اللّهَ ﷻ؟ فإذا قال: نعم، استبشر».

ويضيف عونُ بن عبد الله الذي يروي هذا عن ابن مسعود: «فَيَسْمَعْنَ الزُّورَ إذا قيل ولا يسمعن الخير هن للخير أسمع، وقرأ:

﴿**وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدَاً. لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئَاً اِدَّاً. تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْاَرْضُ وَتَخِرُّ الجِبَالُ هَدَّاً. اَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ**



وَلَدًا. وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ اَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا. اِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْاَرْضِ اِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ (مريم، ٨٨ – ٩٣)» (البيهقي، الشعب، ١، ٤٥٣؛ الطبراني، المعجم الكبير، ٩، ١٠٣)

وبناء على ذلك يجب على الإنسان اجتناب الكلام المؤذي والتصرفات المؤذية في كل مكان وكل حال، فتلويث المدينة والمناظر الطبيعية في البلدات والقرى وتلويث ماءها وهواءها، وإلقاء القمامة والأوساخ في كل مكان تصرف وسلوك ينافي كرامة الإنسان وشرفه، ويكون ذلك من الأنانية حيث لا نفكر بأنفسنا ولا بمن حولنا، في حين أن المسلمين يعلمون أن تلويثهم للأماكن يسبب الضرر لغيرهم وتخريب جمال الطبيعة، ثم إن عدم إلقاء أشياء ملوثة كقشر البذور والبندق والفستق وزجاجات الماء وعُلب الأغذية المعلّبة والأوراق وبقايا العبوات في الشوارع والأزقّة والمتنزهات وكذا عدم التصرف بسلوكيات تزعج وتؤذي الغير سواء من الناس أو الحيوان؛ كل ذلك يعدّ من مقتضى الإيمان، وهو شرط لكمال الإيمان، وقد بين النبي ﷺ أن إماطة غصن أو حتى شوك يؤذي الناس عن الطريق من شعب الإيمان.[٣٨]

٣٨. مسلم، الإيمان، ٥٨.

ويخبرنا الرسول ﷺ أن الله تعالى لا يحب من يؤذي الناس، يقول معاذ بن أنس رضي الله عنه:

«غزوت مع نَبِيِّ اللَّهِ ﷺ غغزوة كذا وكذا، فضيق الناس المنازل وقطعوا الطريق، فبعث نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ منادياً ينادي في الناس: **"أَنَّ مَنْ ضَيَّقَ مَنْزِلًا أَوْ قَطَعَ طَرِيقًا فَلَا جِهَادَ لَهُ"**» (أبو داود، الجهاد، ٨٨ / ٢٦٢٩؛ أحمد، ٣، ٤٤١)

فيوضح الرسول الأعظم ﷺ هنا أن تضييق الأماكن والطرق من غير ضرورة، وأن إلحاق الأذى والضرر بعباد الله تعالى؛ يعدُّ خطأً كبيراً، فضلاً عن إضاعته للثواب، ومن هذه الناحية فإن إلقاء النفايات عشوائياً والبصق وإيقاف السيارات في مكان غير مناسب، وكلّ ما فيه تضييقٌ على النّاس ووضْع أشياء تصعِّبُ عليهم المشي في الطّرق، كلّ ذلك لا بدّ للمسلم من اجتنابه والابتعاد عنه، يقول الرّسول ﷺ:

"إِيَّاكُمْ وَالتَّعْرِيسَ عَلَى جَوَادِّ الطَّرِيقِ، وَالصَّلَاةَ عَلَيْهَا، فَإِنَّهَا مَأْوَى الْحَيَّاتِ وَالسِّبَاعِ، وَقَضَاءَ الْحَاجَةِ عَلَيْهَا، فَإِنَّهَا مِنَ الْمَلَاعِنِ"

(ابن ماجه، الطهارة، ٢١/ ٣٢٩؛ أحمد، جـ٣، ص: ٣٠٥، ٣٨١)

وقال عليه الصلاة والسلام:



"**اتَّقُوا الْمَلَاعِنَ الثَّلَاثَةَ: الْبَرَازَ فِي الْمَوَارِدِ، وَقَارِعَةِ الطَّرِيقِ، وَالظِّلِّ**" (أبو داود، الطهارة، ١٤ / ٢٦؛ ابن ماجه، الطهارة، ٢١؛ أحمد، مسند، ١، ٢٩٩)

يلاحظ من التعاليم العظيمة هذه للرسول ﷺ الحفاظ ليس على الإنسان وحسب بل على التكامل الموجود في الطبيعة بنظام دقيق، والحماية للمحيط وللحياة البرية بدقة ورقّة عميقين.

إن المسلمين كما أنهم لا يؤذون الحيوانات فضلاً عن البشر فإنهم علاوة على ذلك يخدمونها لأنها من مخلوقات الله تعالى، لقد أفاد الكاتب الفرنسي المشهور مونتا اِغْنه أن الأتراك المسلمين أسسوا دُوْرَ وقف ومشافٍ للحيوانات، ويتحدث المحامي الفرنسي غُوْوِر الذي زار الدولة العثمانية في القرن (السابع عشر) عن وجود مستشفىً في دمشق يعتني بمعالجة القطط والكلاب المريضة، ويحدثنا الأستاذ الدكتور مصطفى السباعي فيما يتعلق بهذا النوع من الأوقاف فيقول: «توجد أماكن لمعالجة الحيوانات ومراعٍ في تقاليد الوقف القديم، فوقف المرعى الأخضر (وهي الساحة التي تحولت الآن إلى ساحة المدينة في دمشق) كانت فيما مضى ميداناً وُقِفَ لكي ترعى فيه الحيوانات الضعيفة التي حرمت الرعي والعناية بسبب فقدانها لطاقتها، وكانت هذه الحيوانات ترعى هناك إلى أن تموت، وتوجد من بين هذه الأوقاف في دمشق أماكن للقطط تأكل فيها



وتنام وتمرح، حتى أن المئات من القطط كانت لا تعاني في إيجاد طعامها كل يوم حيث أصبحت من الطوّافات على ذلك المكان"

إن الإسلام الذي وهب المخلوقات هذا الكمّ من القيمة والتقدير، يهتم بالشجر والمحيط الأخضر، يقول الرسول ﷺ:

"إِنْ قَامَتِ السَّاعَةُ وَبِيَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ، فَإِنْ اسْتَطَاعَ أَنْ لَا يَقُومَ حَتَّى يَغْرِسَهَا فَلْيَفْعَلْ" (أحمد، مسند، جـ ٣، ص، ١٩١، ١٨٣/ ١٢٩٨١)

عن أبي الدرداء ﷺ، أنّ رجلاً، مَرَّ بِهِ وهو يغرس غرساً بدمشق فقال له: «أتفعل هذا وأنت صاحب رسول ﷺ؟» فقال: لا تعجل علي سمعت رسول الله ﷺ يَقُولُ:

"مَنْ غَرَسَ غَرْسًا لَمْ يَأْكُلْ مِنْهُ آدَمِيٌّ، وَلَا خَلْقٌ مِنْ خَلْقِ اللهِ ﷻ إِلَّا كَانَ لَهُ صَدَقَةً" (أحمد، ٦، ٤٤٤/ ٢٧٥٠٦؛ انظر: مسلم، المساقات، ٧)

ويقول الرسول ﷺ في حديث آخر:

"مَنْ قَطَعَ سِدْرَةً صَوَّبَ اللَّهُ رَأْسَهُ فِي النَّارِ" (أبو داود، الأدب، ١٥٨ - ١٥٩/ ٥٢٣٩)

ثم إن النبي ﷺ حظر قطع الأشجار وتخريب النبات والصيد في المدينة والطائف إلى جانب مكة بإعلانه إياها أماكن محرمة،[٣٩]

٣٩. أبو داود، المناسك، ٩٦؛ م. حميد الله، الوثائق السياسية، بيروت، ١٩٦٩، ص: ٢٣٦ - ٢٣٨، ٢٤٠.



فيقول الرسول ﷺ:"لا يُخبَطُ ولا يُعضَدُ حِمى رسول الله ﷺ ولكن يُهَشُّ هَشًّا رَفِيقًا" (أبو داود، المناسك، ٩٥-٩٦ / ٢٠٣٩)

وقال فيما يتعلق بمكان مرعى قبيلة بني حارثة:

"مَنْ قَطَعَ شَجَرَةً فَلْيَغْرِسْ مَكَانَهَا وَدِيَّةً" (البلاذري، فتوح البلدان، ص ١٩)

وينقل أبو دعشم الجهني عن جده قال:

«نظر رسول الله ﷺ إلى أعرابي وهو يخبط على غنمه، فقال:

"ائتوني بالأعرابي ولا تفزعوه!" فلما جاء قال:

"يا أعربي هشَّ هشّاً ولا تخبط خبطاً"

قال: فكأني أنظر إلى الخبط على صلعته» (ابن الأثير، أسد الغابة، دار الكتب العلمية ١٤١٥، ٦، ٣٥١/ ٦٤٣٢)

وكما رأينا فإن رسول الله ﷺ أنشأ مجتمعاً كريماً يحترم ويراعي جميع المخلوقات، من خلال توصيته في كل فرصة سانحة بحماية وتجميل المحيط.

وقد كانت خطبة أبي بكر ﵁ الخليفة الأول بجيشه المستعد للخروج إلى القتال إحدى الشواهد على هذا:

«يا أيها الناس قفوا أوصيكم بعشر فاحفظوها عني: لا تخونوا، ولا تَغُلُّوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا طفلاً صغيراً أو شيخاً كبيراً ولا امرأة، ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه،

ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا لمأكلة، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له»[٤٠]

يقول الكومت دي بونّيفل وهو مذهول عندما لاحظ حساسية المسلمين في هذا الشأن: «لقد كان من الممكن في الدولة العثمانية رؤية الأتراك الذين وصلوا حدّاً كبيراً في المبالغة ! إلى درجة أنهم وقفوا مالاً للعاملين في سقاية الأشجار غير المثمرة كي لا تجف من الحرارة حيث كانوا يسقونها كل يوم»

٢. النظافة

يحثّ الإسلام على النظافة بنوعيها المادي والمعنوي، ويعلم الكيفية التي تتحقق النظافة بها، يقول الله تعالى في الآية الكريمة:

﴿...إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ (البقرة، ٢٢٢)

ويقول الرسول ﷺ في الحديث الشريف:

"إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ يُحِبُّ الطَّيِّبَ، نَظِيفٌ يُحِبُّ النَّظَافَةَ، كَرِيمٌ يُحِبُّ الْكَرَمَ، جَوَادٌ يُحِبُّ الْجُودَ، فَنَظِّفُوا أَفْنِيَتَكُمْ، وَلا تَشَبَّهُوا بِالْيَهُودِ"

(الترمذي، الأدب، ٤١ / ٢٧٩٩)

٤٠. انظر: علي المتقي، كنز العمال، ٣٠٢٦٨؛ البيهقي، السنن الكبرى، ٩، ٨٥؛ابن الأثير، الكامل، بيروت ١٩٨٧، ٢، ٢٠٠.



إننا نرى اعتناء النبي ﷺ الشديد طوال حياته بشتى أنواع النظافة، على سبيل المثال: اهتمامه إلى أبعد الحدود بارتداء الملابس الجميلة والتعطر بالروائح الزكية وعدم تناول أطعمة تؤذي الغير كالبصل والثوم وخاصة عند الذهاب إلى المسجد أو عند استضافة أحدهم أو الاجتماع مع الناس.

لقد وضع الإسلام نظاماً يقوم على أسس من الطهارة والنظافة واللطف.

يقول النبي ﷺ:

"الطَّهور شَطْر الْإِيمَانِ..." (مسلم، الطهارة، ١/ ٢٢٣)

ثم إن كتب الحديث والفقه كلها تقريباً تبدأ بأبواب الطهارة.

وإن بعض العبادات في ديننا لا تقبل أو لا يجوز القيام بها ما لم يُطهَّر البدن والمكان الذي يعدّ من أسس ديننا.

ولعناية الإسلام بالنظافة تلقى آداب قضاء الحاجة أهمية كبيرة، حيث يجب الحذر من وصول شيء من النجاسة إلى الثوب، كما أُمرنا بالاستبراء على أتم وجه بعد قضاء الحاجة، يقول الرسول ﷺ:

"أَكْثَرُ عَذَابِ الْقَبْرِ مِنَ الْبَوْلِ" (ابن ماجه، الطهارة، ٢٦/ ٣٤٨)

وهو عليه الصلاة والسلام بهذا يريد من أمته الاعتناء بهذا الأمر.



لقد أمرنا الإسلام بغسل أعضاء معرضة للتلوث والجراثيم في كل آن كاليد والفم والأنف والوجه والرأس والأذن والرقبة والقدم خمس مرات على الأقل في اليوم، يقول الرسول ﷺ:

"مِفْتَاحُ الْجَنَّةِ الصَّلَاةُ، وَمِفْتَاحُ الصَّلَاةِ الْوُضُوءُ" (الترمذي، الطَّهَارَة، ٣؛ أحمد، مسند، ٣، ٣٤٠)

وبهذا فإن الإسلام يضع كل نظافة لا بد للإنسان من القيام بها ضمن هوية العبادة، وهو يوفّر للناس تذوّق حلاوة العبادة في الوقت الذي ينظفون فيه ما ينبغي لهم تنظيفه.

وأما الخصلة الأخرى التي أكّد النبي ﷺ عليها فهي نظافة الفم، فقد أوصى عليه الصلاة والسلام باستخدام السواك في جميع الأوقات وخاصة قبيل الوضوء[٤١]، وطلب من المسلمين أن يعملوا على زيادة البركةِ في طعامهم بغسل أيديهم قبل الطعام وبعده[٤٢].

ومن ناحية أخرى فإن الختان الذي هو من خصال الفطرة، وحلق العانة وقص الأظافر ونتف الإبط وتقصير الشاربين، هي بعض أصول وآداب النظافة التي علّمنا النبي ﷺ إياها[٤٣].

٤١. البخاري، الجمعة ٨، التمني ٩، الصوم ٢٧؛ مسلم، الطهارة ٤٢.

٤٢. الترمذي، الأطعمة، ١٨٤٦/٣٩.

٤٣. البخاري، اللباس، ٦٣-٦٤.



ثم إن النبي ﷺ إلى جانب اعتناءه بنظافة الملابس إلى أبعد الحدود فإنه اهتم كذلك بالترتيب والنظام، يحدثنا أبو قرصافة رضي الله عنه وهو أحد من عاين ذلك فيقول:

«لما بايعنا رسول الله ﷺ أنا وأمي وخالتي ورجعنا من عنده منصرفين، قالت لي أمي وخالتي:

«يا بني، ما رأينا مثل هذا الرجل أحسن منه وجهاً، ولا أنقى ثوباً، ولا ألين كلاماً، ورأينا كأن النور يخرج من فيهِ (أي من فمه)»»

(الهيثمي، مجمع الزوائد، جـ٨، ص ٢٧٩-٢٨٠؛ الطبراني، المعجم الكبير/ ٢٥١٨)

كان النبي ﷺ في المسجد ذات مرة فطلع عليه رجل أشعث أغبر، فأشار إليه النبي ﷺ بيده أن يحسن من حاله وهيئته.[٤٤]

لم يكن النبي ﷺ يرغب بوجود روائح مؤذية في ملابسه، وعَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ:

«...وكان رسول الله ﷺ يَشتدُّ عليه أن يوجد منه الريحُ...»

(البخاري، الحِيَل، ٧/ ٦٩٧٢)

وذات يوم شعر بوجود رائحة عرق وصوف في بردته فخلعها، وقد أخبرت السيدة عائشة رضي الله عنها بذلك، وأخبرتنا أنه ﷺ كان يستحسن الروائح الطيبة والزكية على الدوام.[٤٥]

٤٤. الموطأ، الشعر، ٧، البيهقي، الشعب، ٧، ٢٢٥.

٤٥. أبو داود، اللباس، ١٩/ ٤٠٧٤.



وعن إبراهيم قال:

«كان رسول اللَّهِ ﷺ يُعرف باللَّيل بريح الطيب» (الدارمي، المقدمة، ١٠ / ٦٦)

وقَالَتْ عَائِشَةُ رضي الله عنها: «كان أصحاب رسول اللَّهِ ﷺ عُمَّالَ أنفسهم، وكان يكون لهم أرواح، فقيل لهم: «لو اغتسلتم».
(البخاري، البيوع ١٥/ ٢٠٧١، الجمعة، ١٦؛ مسلم، الجمعة ٦)

أنشأ المسلمون أوقاف متنوعة ومجار مائية وصنابير مياه في جميع أنحاء البلاد، وبنوا حمامات في كل الأماكن حتى في القرى لكي تتحقق النظافة، إن بيوت المسلمين نظيفة إلى أبعد الحدود، فلا يدخل إليها بالأحذية إطلاقاً، وكل بقعة فيها نظيفة بحيث يجوز أداء الصلاة فيها، ولا تربى الحيوانات فيها أبداً، حتى الطيور.

كان الصحابة والمسلمون يأمرون بكنس بيوتهم يومياً. عن أم ولد لعبد الله بن مسعود، قالت:

«كان عبد الله يأمر بداره فتكنس حتى لو التمست فيها تبنة أو قصبة ما قدرت عليهما» (ابن أبي شيبة، المصنف، الرياض ١٤٠٩، ٥، ٢٦٤/ ٢٥٩٢١)

عن سرية الربيع، قالت: «كان الربيع يأمر بالدار أن تنظف كل يوم» (ابن أبي شيبة، المصنف، الرياض ١٤٠٩، ٥، ٢٦٤/ ٢٥٩٢٢)



يقول م. دي تيفينوت فيما يتعلق بالنظافة واللطف في المجتمع الإسلامي: «يتمتع الأتراك بصحة جيدة ولا يمرضون إلا قليلاً، فأمراض الكلى وغيرها الكثير من الأمراض التي نعاني منها في بلادنا ليست موجودة عندهم، بل حتى أنهم يجهلون أسماءها، وأظنُّ السبب في ذلك الاستحمام المتكرر والاعتدال في الطعام والشراب. فهم يأكلون القليل من الطعام، وما يأكلونه ليس مختلطاً كطعام النصارى»(٤٦)

لقد منع النبي ﷺ توسيخ الطرق التي يسير الناس فيها، والأماكن التي يستظلّون فيها تحت الأشجار أو الجدران، وكذا التي يقصدونها للتنزه والاستراحة.(٤٧)

عن أبي موسى رضي الله عنه، أنه قال: حين قدم البصرة، «بعثني إليكم عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أعلمكم كتاب ربكم وسنتكم، وأنظف طرقكم» (الدارمي، المقدمة، ٤٦/ ٥٦٦؛ ابن أبي شيبة، المصنف، ٥، ٢٦٤/ ٢٥٩٢٣)

ثم إن النبي ﷺ يوصينا بالاعتناء بالحيوان وتنظيفه، وبالأخص كان يطلب تنظيف الأوساخ والغبار الموجودة على الأغنام والماعز(٤٨).

---

٤٦. M. De Thevenot، Relation d'un Vogaye Fait au Levant باريس، 1665، ص: 58.

٤٧. أبو داود، الطهارة، ١٤/ ٢٦، ابن ماجة، ٢١، أحمد، ١، ٢٩٩، ٣، ٣٠٥، ٣٨١، الحاكم، ١، ٢٧٣/ ٥٩٤.

٤٨. الهيثمي، ٤، ٦٦-٦٧.

ولقد أولى الإسلام نظافة دور العبادة عناية بالغة، فعن جابر ﷺ:

أتانا رسول الله ﷺ في مسجدنا هذا، وفي يده عرجون ابن طاب، فرأى في قبلة المسجد نخامة فحكها بالعرجون،... فَقَالَ: "أَرُونِي عَبِيرًا"، فقام فتىً من الحي يشتد إلى أهله، فجاء بخلوق في راحته، فأخذه رسول اللهِ ﷺ فجعله على رأس العرجون، ثم لطخ به على أثر النخامة، فقال جابر: فمن هناك جعلتم الخلوق في مساجدكم» (مسلم، الزهد، ٧٤ / ٣٠٠٨)

٣. الماء

إن الماء هو الوسيلة الأكثر ضرورة لتنظيف المحيط وتوفير النظافة، والأكثر من ذلك فإن استمرار الحياة مرتبط بالماء، لأن الماء فيه حياة، وهو أصل كل شيء حيٍّ، يقول الله تعالى في الآية الكريمة:

﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ (النور، ٤٥؛ الأنبياء، ٣٠)

قد جعل الله تعالى في الماء ميزات متنوعة، ومنها ما يلي:

١) إن المركَّب الأقرب إلى الماء هو كبريتيد الهيدروجين (H_2S) مع أنه أثقل من الماء بضعفين فإنه يكون بخاراً في حرارة الغرفة، بالإضافة إلى أنه غاز ذو رائحة سيئة وسامة، ما يعني أن الله تعالى خلق الماء خصيصاً للإنسان.



٢) إن الماء عندما يكون في أكثر أحواله كثافةً يكون مائعاً في درجة (+٤) على عكس نظائره من المركبات الكيميائية التي تكون ثخينة أي لا تكون في حالة مكعبات الثلج، وبهذا الشكل فإن المياه في البحار والأنهار والبحيرات يبدأ التجمد فيها من السطح ممتداً إلى القعر وليس العكس، وهذا يحول دون تجمد المخلوقات البحرية بالماء المتجمّد على السطح.

٣) ثم إن درجة تجمد الماء وغليانه هي الأنسب لعيش المخلوقات العضوية فيه من حيث درجات الحرارة.

٤) إن لتقاطب الماء ميزة تجعله يحلُّ الكثير من المواد العضوية وغير العضوية.

يشير القرآن الكريم في مواضع كثيرة إلى الماء، حيث يتحدث عن كيفية تشكّل المطر ومراحل تحوّل السُّحب إلى المطر وإنزاله إلى الأرض بقدر معين وإحيائه الأرض الميتة، ويتكلم عن المياه الباطنية وتكرير الماء وتنقية الماء الملوث.[٤٩] ويلفت الأنظار إلى أن كل ذلك يعدُّ نعماً كبيرةً، والله تعالى يطلق على المطر اسم الرحمة.[٥٠]

---

٤٩. النور، ٤؛ الزخرف، ١١؛ الزمر، ٢١؛ الواقعة، ٦٨ - ٧٠؛ النازعات، ٣١؛ الفرقان، ٤٨.

٥٠. الأعراف، ٥٧؛ الشعراء، ٢٨.



إن أكثر من يدرك قيمة الماء هم المسلمون، فيدعون لمن يكرمهم بتقديم الماء إليهم: «جعلك الله عزيزاً كالماء»، ولذا يلقى خدام الماء احتراماً كبيراً، وبالأخص مقدّمي الماء والعصير في البيت الحرام إلى الحجاج فإن فيه شرفاً كبيراً وهي وظيفةٌ مهمةٌ.

كان للعباس عم النبي ﷺ كرم عنب، فكان قبل الإسلام وبعده يحمل العنب الجاف من هناك ويضعه في زمزم ثم يقدمه للحجاج، وواصل أبناؤه وأحفاده القيام بذلك من بعده.(٥١)

عن ابن عبّاس رضي الله عنهما: أَنَّ رسول اللَّهِ ﷺ جاء إلى السقاية فاستسقى، فقال العباس: يا فضل، اذهب إلى أُمِّكَ فَأْتِ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بِشَرَابٍ مِنْ عِنْدِهَا، فَقَالَ: "**اسْقِنِي**"، قَالَ: قال: يا رسول الله، إنهم يجعلون أيديهم فيه، قال:: "**اسْقِنِي**"، فشرب منه، ثم أتى زمزم وهم يسقون ويعملون فيها، فقال:

"اعْمَلُوا فَإِنَّكُمْ عَلَى عَمَلٍ صَالِحٍ"

ثُمَّ قَالَ: **"لَوْلاَ أَنْ تُغْلَبُوا لَنَزَلْتُ، حَتَّى أَضَعَ الحَبْلَ عَلَى هَذِهِ"** يعني: عاتقه، وأشار إلى عاتقه (البخاري، الحج، ٧٥/ ١٦٣٥)

ويبين النبي ﷺ فضيلة تقديم الماء للناس فيقول:

---

٥١. ابن هشام، ٤، ٣٢؛ ابن سعد، ٢، ١٣٧؛ الواقدي، المغازي، بيروت ١٩٨٩، ٢، ٨٣٨.



"**يَصُفُّ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ صُفُوفًا** - وقال: ابن نمير أهل الجنة - **فَيَمُرُّ الرَّجُلُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ عَلَى الرَّجُلِ فَيَقُولُ: يَا فُلَانُ أَمَا تَذْكُرُ يَوْمَ اسْتَسْقَيْتَ فَسَقَيْتُكَ شَرْبَةً؟ قَالَ: فَيَشْفَعُ لَهُ، وَيَمُرُّ الرَّجُلُ فَيَقُولُ: أَمَا تَذْكُرُ يَوْمَ نَاوَلْتُكَ طَهُورًا؟ فَيَشْفَعُ لَهُ، وَيَقُولُ: يَا فُلَانُ أَمَا تَذْكُرُ يَوْمَ بَعَثْتَنِي فِي حَاجَةِ كَذَا وَكَذَا فَذَهَبْتُ لَكَ، فَيَشْفَعُ لَهُ**" (ابن ماجة، الأدب، ٨/ ٣٦٨٥)

وقد كان النبي ﷺ يهتم بأن يكون الماء نظيفاً وعذباً، فيرجح الآبار ذات المياه العذبة،[٥٢] وكان عليه الصلاة والسلام يحظر تلويث الماء.[٥٣]

وإن الإسلام يشترط في ماء الوضوء كونه نظيفاً، ويمنع استخدام الماء الذي تغيرت أوصافه من طعم أو لون أو رائحة.

وبما أن للماء هذه الأهمية العظيمة فيلزمنا استخدامه بحقّه، لقد أجرى العالِم الياباني الدكتور ماسارو إموتو أبحاثاً حول بلّورات الماء ولاحظ انتظامها وجماليتها وتركيبتها السّداسية إلى جانب جمال شكلها البالغ في الروعة حدّاً يُسْحر به الإنسان في منابع الماء الطبيعية التي لم تصل إليها يد إنسان.

٥٢. ابن حجر، الإصابة، ٣، ٦١٥.

٥٣. البخاري، الوضوء، ٦٨.



ملأ وعاءين من هذا الماء ثم شرع بتجربته، فلاحظ أن الماء الموجود في الإناء الأول وقد قام بالهمس له بألفاظ تفيد الامتنان والدعاء لم تفقد بلّوراته روعتها الطبيعية، وأما الإناء الآخر الذي تلقى ألفاظاً قبيحة كالشيطان وغيره من الألفاظ فقد وجد بلّوراته قد تفتت وفسدت أشكالها وفقدت كل ميزاتها الجمالية.

وفي التجربة نفسها كانت ردَّات فعل المياه مختلفة مقابل الموسيقى الجميلة واللطيفة والإيقاعات المزعجة والبشعة. أجريت تجارب مشابهة لهذا على الأرز المطهو وعلى الأزهار فبقيت التي لاقت تصرفاً جيداً طازجة وأما الأخرى فذبلت وفسدت.

يجيب د. إموتو: على سؤال:

«ما مدى تأثير التفكير السليم والجميل والمعاملة الجيدة للماء على جسم الإنسان؟» فيقول: «هذه حصيلة بحث استمر ٥ , ٧ أعوام، فلقد كان للمياه التي أسمعناها كلاماً جميلاً ولطيفاً تأثيراً واضحاً وإيجابياً في معالجة مرضى السرطان وأشباههم الذين سقيناهم منه»

وفي هذا الصدد يكون من الواجب علينا أن نحب جميع الناس والحيوانات والنباتات والبيئة وباختصار كل الدنيا ومن ثم التعامل معها كلها بالحسنى.



وثمة أمر آخر لا بد من ذكره ههنا ألا وهو عدم الإسراف في الماء وغيره: يقول الحق تعالى:

﴿وَكُلُوْا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوْا...﴾ (الأعراف، ٣١)

﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِيْنَ كَانُوْا إِخْوَانَ الشَّيَاطِيْن...﴾ (الإسراء، ٢٧)

﴿...وَلَا تُسْرِفُوا اِنَّه لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِيْنَ﴾ (الأنعام، ١٤١)

ويقول الرسول ﷺ في الحديث الشريف:

"كُلُوا وَاشْرَبُوا وَالْبَسُوا وَتَصَدَّقُوا فِي غَيْرِ سَرَفٍ وَلا مَخِيلَةٍ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ أَنْ تُرَى أَثَرُ نِعَمِهِ عَلَى عَبْدِهِ" (البخاري، اللباس، ١)

ولا سيما الماء فلا يجوز إسرافه بأي شكل من الأشكال، لما ورد عن النبي ﷺ أنه مر على سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه وهو يتوضأ فقال: **"مَا هَذَا السَّرَفُ"**

قال: «أفي الوضوء إسراف؟»

قال: **"نَعَمْ، وَإِنْ كُنْتَ عَلَى نَهَرٍ جَارٍ"** (ابن ماجه، الطهارة، ٤٨/ ٤٢٥؛ أحمد، ٢، ٢٢١)

فإذا كنا مطالبين بعدم الإسراف حتى في الوضوء للعبادة، يكون من الواضح منع الإسراف في سائر الأحوال.



القسم الثالث

القرآن الكريم



١ . نزوله وكتابته

إن القرآن الكريم هو آخر الكتب السماوية المنزّلة، وأما نزوله فلم يكن جملة بل منجماً على حسب الكثير والعديد من الحوادث والحِكم، مما أسهم في استفادة المسلمين من الكثير من الفوائد والتسهيلات.

كان رسولنا الأكرم ﷺ يتعجّل قراءة الآيات المنزلة إليه بالوحي فيقرأها مع جبريل الأمين مخافة نسيانها، فأنزل الله تعالى في هذا الشأن:

﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ (طه، ١١٤)

﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ. إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرآنَهُ. فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ. ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَه﴾ (القيامة، ١٦ – ١٩)

وبعد هذا فقد كان النبي ﷺ يستمع إلى الوحي حتى يفرغ جبريل عليه السلام، فإذا بلّغ جبريل عليه السلام الوحي السماوي بأكمله حفظه ﷺ وتلاه، وهذا من إحدى الدلائل على كون القرآن معجزة.



كان للنبي ﷺ العديد من كتّاب الوحي، حيث بلغ عددهم ٦٥، فإذا جاء الوحي استدعى عليه الصلاة والسلام من كان قادراً منهم ليكتبوا ما أتى به الوحي،[١] وهم بدورهم يكتبون الآيات المنزلة على مواد مُعَدَّة للكتابة في ذلك العهد، وبعد فراغهم من الكتابة يطلب النبي ﷺ من كَتَبَتِه قراءة ما كتبوه حيث يصحح الأخطاء إنْ وجدت. وبعد ذلك يخرج كاتب الوحي ويعرض ما كتبه على الناس.[٢] وعقب ذلك يقرأ الرسول ﷺ الآيات المنزَّلة على الصحابة الرجال منهم أولاً ثم النساء.[٣] فيحفظ المسلمون الوحي المنزَّل، ويحتفظ بعضهم بنسخ مكتوبة منه.

وأما ترتيب الآيات المنزَّلة منجَّمة على مراحل حسب أماكنها وسورها فكان يعرَّف من الحق تعالى، حيث يُعلِّم جبريل عليه السلام رسول الله ﷺ بها، وبدوره ﷺ يُعلِّم كتبة الوحي بذلك.[٤]

ثم إن علينا أن لا ننسى أن من الآيات التي أنزلت أولاً كانت موضوعها المدح والثناء على «القلم» و«ما يسطرون» واللذان يُعدَّان واسطة في التعرّف على العلوم البشرية، مع التأكيد على كلمة

١. د. محمد مصطفى الأعظمي، تاريخ القرآن، ص ١٠٦-١٠٧؛ كُتّاب النبي ﷺ، بيروت ١٣٩٨.

٢. انظر: البخاري، فضائل القرآن، ٤؛ الترمذي، المناقب، ٧٤ / ٣٩٥٤؛ أحمد، ٥، ١٨٤.

٣. انظر: سيرة ابن إسحاق، ص ١٢٨.

٤. انظر: البخاري، التفسير، ٢/ ٤٥؛ أبو داود، الصلاة، ١٢٠ - ١٢١/ ٧٨٦؛ الترمذي، التفسير، ٩/ ٣٠٨٦؛ أحمد، ٤، ٢١٨؛ علي المتقي، ٢، ١٦/ ٢٩٦٠.



«كتاب» والتي تعني المعارف المسجلة والمخطوطة،[٥] إذاً وهذا من إحدى العوامل التي أسهمت في حفظ القرآن الكريم بكتابته.

كانت كتابة القرآن الكريم منتشرة انتشاراً واسعاً لدى الصحابة ﷺ، إذ كان الجميع متشبثاً بها، فمن يجهل الكتابة يأْتي بورقة عند النَّبيِّ ﷺ فيقوم الرَّجل فيحتَسِب فيكْتُبُ، ثمَّ يقوم آخر فيكتبُ حتّى يُفْرغ مِن الْمصحف،[٦] ولذا فقد منع النبي ﷺ كتابة القرآن والحديث في مكان واحد خشية الاختلاط.[٧]

فحفظ وتسجيل الآيات الكريمة بدأ في فترات الإسلام الأولى بل مع المحن الكثيرة التي قاساها المسلمون تحت وطأة ظلم قريش، وفي مجتمع ما يزال في طور النشوء.

وقد تحدثت (الآيات ١١-١٦ من سورة عبس) عن وجود الكثير من نصوص القرآن الكريم المكتوبة في صدر الإسلام، وقد أخبر ابن عباس رضي الله عنه أن الآيات المنزلة في مكة كُتبَت فوراً.[٨] مع العلم

٥. انظر: العلق، ١ - ٥؛ القلم، ١؛ البقرة، ٢؛ الزخرف، ٢؛ الدخان، ٢.

٦. انظر: البيهقي، السنن الكبرى، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٢٤، ٦، ٢٧.

٧. البروفسور. د. م. م. الأعظمي، تاريخ القرآن، اسطنبول، ٢٠٠٦ ص: ١٠٧ - ١٠٨.

اهتم النبي ﷺ كثيراً فيما يتعلق بتفريق أحاديثه الشريفة عن الآيات الكريمة، فكان يوضح ذلك بقوله عن القرآن الكريم أنه «كلام الله تعالى المنزل» وعن أحاديثه «هذا من عندي»، وفي بعض الأحيان كان الصحابة يسألونه «هذا الرأي أهو عائد إليك؟». (للاطلاع انظر: م. حميد الله، تاريخ القرآن الكريم، ص: ١٥ - ١٨).

٨. ابن الضُّريس، فضائل القرآن، دمشق ١٤٠٨، ص ٣٣.



بأنّ عمر بن الخطاب ﷺ أسلم في صدر الإسلام بعد قراءته شيئاً من القرآن الكريم مكتوباً على صحيفة.[٩] ثم إن النبي ﷺ كان قد سلَّمَ رافع بن مالك ﷺ في بيعة العقبة نسخة من نصوص القرآن فيها الآيات والسور المنزَّلة إلى ذلك الوقت، فأصبح رافع ﷺ بعد عودته إلى المدينة يقرأ هذه الآيات والسور على المسلمين المجتمعين في المسجد الذي أسَّسه في حيِّه وبات يُعرف بأول مسجد فكان أول من أَوْصَلَ سورة يوسف إلى المدينة.[١٠]

إن آيات القرآن الكريم وسوره المنزلة كانت منذ اليوم الأول وما زالت تتلى بالسر والعلانية ليلاً ونهاراً في الصلوات المؤداة فرضاً كانت أو نفلاً، وبالأخص في صلاة التهجد الطويلة، إذ كان الصحابة الكرام ﷺ يقيمون فيما بينهم فعاليات وأنشطة كبيرة تشمل القراءة والكتابة وتعلّم القرآن الكريم وحفظه. وبذلك فإن الكثير من الناس حفظ وكتب القرآن الكريم من أوله إلى آخره بفضل النبي ﷺ. وهذه الجهود المباركة لا تزال مستمرة حتى يومنا هذا بل زادت.

---

٩ سيرة ابن هشام، ١، ٣٦٩ - ٣٧١.

١٠. انظر: ابن حجر، الإصابة، رقم: ٢٥٤٦ (مادة رافع بن مالك)؛ ابن كثير، البداية، ٣، ١٥٢؛ ابن الأثير، أسد الغابة، ٢، ١٥٧؛ الكتّاني، التراتيب، بيروت، دون تاريخ، ١، ٤٤؛ الأعظمي، المرجع السابق، ص ١٠٦؛ حميد الله، المرجع السابق، ص ٤٤.



ثم إن النبي ﷺ وجبريل عليه السلام كانا يدارسان القرآن الكريم فيقرأ كل منهما للآخر في شهر رمضان، وقاما بذلك مرتين في السنة الأخيرة.[١١] يقول ابن مسعود رضي الله عنه:

«...ولقد كنت أعلم أنه يُعْرَضُ عليه القرآنُ في كل رمضان، حتى كان عامُ قُبض فعرض عليه مرّتين، فكان إذا فرغ أقرأ عليه، فيخبرني أني محسنٌ...» (الطبري، ١، ٢٨؛ أحمد، ١، ٤٠٥)

وبعد عرض القرآن الكريم آخر مرة مع جبريل عليه السلام قرأ النبي ﷺ وزيد بن ثابت وأُبَيّ بن كعب القرآن الكريم كل منهم للآخر حتى أن النبي ﷺ قرأه على أُبَيّ مرتين،[١٢] وعادة العرض هذه والقراءة من الطرفين كل منهما للآخر استمرت إلى يومنا هذا وبقيت محافظة على حيويتها.

كان النبي ﷺ يقرأ الآيات والسور المنزلة عليه في خطب الجمعة بين الحين والآخر، ويفيد بعض الصحابة أنهم حفظوا بعض السور من تكرارها في هذه الخطب.[١٣]

إننا عند تأملنا في حياة النبي ﷺ نراه يقرأ القرآن الكريم في عدة أحوال، حيث كان يقرأه حينما يحدّث الناس عن الإسلام،

---

١١. انظر: البخاري، بدأ الخلق ٦، فضائل القرآن ٧، الصوم، ٧.

١٢. المقدمتان، نشر jeffery A، ص ٧٤، ٢٢٧؛ طاهر الجزائري، التبيان، ص ٢٦.

١٣. انظر: مسلم، الجمعة،٣٤ ، ٤٩ - ٥٢.



وفي أوقات مُجالسته لأصحابه الكرام، إلى جانب قراءته لآيات متعلقة بمسألة يبينها لهم، وفي صلاة الليل، إضافة إلى التزامه قراءة سبع القرآن كل يوم.(١٤) وكان أصحابه يقومون بالأمر نفسه، يقول أوس بن حذيفة: «كنت في الوفد الذين أتوا رسول الله ﷺ أسلموا من ثقيف من بني مالك، أنزلنا في قبة له، فكان يختلف إلينا بين بيوته وبين المسجد، فإذا صلى العشاء الآخرة انصرف إلينا، فلا يبرح يحدثنا ويشتكي قريشاً، ويشتكي أهل مكة ثم يقول:

"لَا سَوَاءَ، كُنَّا بِمَكَّةَ مُسْتَذَلِّينَ أَوْ مُسْتَضْعَفِينَ، فَلَمَّا خَرَجْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ كَانَتْ سِجَالُ الْحَرْبِ عَلَيْنَا وَلَنَا"

فمكث عنا ليلة لم يأتنا حتى طال ذلك علينا بعد العشاء. قال: قلنا: ما أمكثك عنا يا رسول الله؟ قَالَ:

"طَرَأَ عَلَيَّ حِزْبٌ مِنَ الْقُرْآنِ، فَأَرَدْتُ أَنْ لَا أَخْرُجَ حَتَّى أَقْضِيَهُ".

فسألنا أصحاب رسول الله ﷺ حين أصبحنا؟ قال: قلنا: كيف تحزبون القرآن؟ قالوا: نحزبه ست سور، وخمس سور، وسبع سور، وتسع سور، وإحدى عشرة سورة، وثلاث عشرة سورة، وحزب المفصل من ق حتى تختم» (أحمد، ٤، ٩/ ١٩٠٢١؛ ابن ماجه، الصلاة، ١٧٨)

١٤. انظر: مسلم، المسافرين، ١٤٢؛ أحمد، ٤، ٩؛ ابن ماجه، الصلاة، ١٧٨؛ ابن هشام، ١، ٣٨١.



وفي حديث آخر يقول عليه الصلاة والسلام:

"مَنْ نَامَ عَنْ حِزْبِهِ، أَوْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ، فَقَرَأَهُ فِيمَا بَيْنَ صَلَاةِ الْفَجْرِ، وَصَلَاةِ الظُّهْرِ، كُتِبَ لَهُ كَأَنَّمَا قَرَأَهُ مِنَ اللَّيْلِ" (مسلم، المسافرين، ١٤٢)

قدم وفد قبيلة كندة في السّنة العاشرة مِن الهجرة يضمّ ستين أو ثمانين رجلاً، مثلوا في حضرة النبي ﷺ في مسجده، فقال ﷺ:

"إن الله بعثني بالحقّ، وأنزل عليّ كتاباً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد، أثقل في الميزان من الجبل العظيم، وفي الليلة الظلماء مثل نور الشهاب"

قالوا: «فأسمعنا منه»، فتلا رسول الله ﷺ:

﴿**وَالصَّافَّاتِ صَفّاً**﴾ حتى بلغ ﴿**وَرَبُّ الْمَشَارِقِ**﴾، ثم سكت وسكن رسول الله ﷺ وسكن روعه، فما يتحرك منه شيء، ودموعه تجري على لحيته.

فقالوا: إنا نراك تبكي، أفمن مخافة من أرسلك تبكي؟!»

قال: "إن خشيتي منه أبكتني، بعثني على صراط مستقيم، في مثل حدِّ السيف، إن زغت عنه هلكت"، ثم تلا:

﴿**وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لاَ تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلاً**﴾ (الإسراء، ٨٦)» وعلى إثر هذا أسلم وفد قبيلة كندة.[١٥]

١٥. انظر: ابن هشام، ٤، ٢٥٤؛ أبو نعيم، دلائل النبوة، ١، ٢٣٧ - ٢٣٨، الحلبي، ٣، ٢٦٠.



وعن أنس بن مالك ﵁، قال:

«أقبل أبو طلحة يوما فإذا النبي ﷺ قائم يقرئ أصحاب الصفة على بطنه فصيل من حجر يقيم به صلبه من الجوع» كان شغلهم تفهم الكتاب وتعلمه، ونهمتهم الترنم بالخطاب وترديده، شاهد ذلك ما حدثناه. (أبو نعيم، حلية الأولياء، ١، ٣٤٢)

لقد كان النبي ﷺ يطلب من أصحابه أن يقرؤوا عليه من القرآن بين الحين والآخر، ويقول لمن يمسك عن ذلك احتراماً:

"إنِّي أحبُّ أن أسمعَه من غيري" (البخاري، التفسير، ٤/ ٩؛ مسلم، المسافرين، ٢٤٨/ ٨٠٠)

وقد تجد من بين الصحابة الكرام ومن تبعهم بإحسان مَن يقرأ القرآن كله في ليلة واحدة،[١٦].

فَعن عثمان بن عبد الرحمن التيمي، قال: قال أبي: «لأغلبن الليلة على المقام، قال: فلما صليت العتمة تخلصت إلى المقام حتى قمت فيه، قال: فبينما أنا قائم إذا رجل وضع يده بين كتفي، فإذا هو عثمان بن عفان، قال: فبدأ بأم القرآن فقرأ حتى ختم القرآن، فركع وسجد ثم أخذ نعليه، فلا أدري أصلى قبل ذلك شيئاً أم لا » (أبو نعيم، حلية الأولياء، ١، ٥٦)

---

١٦. انظر:الترمذي، القراءات، ١١/ ٢٩٤٦؛ الهيثمي ٩، ٩٤؛ ابن سعد، ٣، ٧٦؛ أبو نعيم، الحلية، ١، ٥٧؛ أحمد، الزهد، ص: ١٢٧؛ علي المتقي، ١٣، ٣١ / ٣٦١٦٨ ـ ٣٦١٧٠؛ السمعاني، الأنساب، ٥، ٢٨٢؛ عبد الحي اللكنوي، إقامة الحجة، ٦٤.



٢. حفظه وجمعه في مصحف

بعدما توفي النبي ﷺ واكتمل الوحي كان الكثير من الصحابة يحفظون القرآن عن ظهر قلب ويقرأونه في صلواتهم، ولكن نصوص القرآن تلك آنذاك لم تجمع في كتاب يضمها كلها إذ إن الوحي كان يتنزل على النبي ﷺ حتى آخر لحظة، فقام أبو بكر رضي الله عنه بتشكيل لجنة يترأسها زيد بن ثابت طلب إليهم جمع نصوص القرآن الكريم بين دفتي مصحف يحتويها كلها، وتتمتع هذه اللجنة بالثقة إلى أقصى الحدود، وتتبنى أصولاً متينة في عملها.

وعلى سبيل المثال فإن إحدى هذه الأصول كانت على النحو التالي:

أعلم سيدنا بلال رضي الله عنه الجميع بتجوله في أزقة المدينة المنورة أن على كل من كان في يده نسخ مكتوبة من الآيات الكريمة إحضارها إلى المسجد مع الإتيان بشاهدين يشهدا على أنها النسخ الخطية الأولى التي أمر النبي ﷺ شخصياً بكتابتها. ومن ثم قامت اللجنة بمقارنة النسخ الخطية التي حصلتْ عليها بشهادة شاهدين مع ما يحفظه الناس عن ظهر قلب من القرآن الكريم وولي ذلك كتابة القرآن الكريم من أوله إلى آخره في مصحف واحد. ثم إن هذه اللجنة إن لم تحصل على جميع النسخ المكتوبة في أيدي الناس فإنها كانت تحفظ القرآن عن ظهر قلب.



فهم بهذا العمل قاموا بتصديق ما كان موجوداً وأثبتوا استحالة ورود أية شبهة في القرآن الكريم.وفي عهد عثمان بن عفان ﵁ شُكلت لجنة على رأسها زيد بن ثابت أيضاً، حيث زيدت نسخ القرآن المكتوب في مصحف. وفي رأي آخر طلب عثمان بن عفان ﵁ من اللجنة المؤلفة من ١٢ شخصاً يترأسهم زيد بن ثابت جمع القرآن مرة أخرى، وقورن بالذي جمع على عهد أبي بكر ﵁ ولم يحصل بينهما أي اختلاف، وما هذا إلا دليل على أن القرآن الكريم محفوظ من الله تعالى وإشارة إلى دقة الطريقة والأساليب المستخدمة في جمع القرآن الكريم.[١٧]

لقد أرسِلت نسخ المصحف التي أعدتها اللجنة إلى مراكز معينة.[١٨] كما أُرسِل صحابة علماء يعلمون الناس قراءة القرآن وتلاوته على النحو الصحيح وبمختلف القراءات.

١٧. البروفسور. د. م. م. الأعظمي، تاريخ القرآن، ص١٣١ ـ ١٣٥.

١٨. توجد بعض نسخ القرآن هذه أو أجزاء منها وصلت إلى يومنا هذا، على سبيل المثال: نسخ المصاحف الموجودة في طاشكنت، اسطنبول قصر طوب كابي ومتحف اسطانبول للآثار الإسلامية التركي، هي من النسخ التي قام بتكثيرها عثمان بن عفان أو النسخ المستنسخة عنها. (زاهد الكوثري، المقالات، ص ١٢ ـ ١٣؛ صلاح الدين المنجد، دراسات في تاريخ الخط العربي، ص ٥٠ ـ ٥٥)، وهناك نسخة من المصحف تبلغ ٢٨ صفحة منه تعود إلى عثمان بن عفان ﵁ مكتوبة على الجلد والتي لا تقدر بثمن تم إهداؤها إلى متحف مولانا في قونيا من قبل حفيد السلطان عبد المجيد والوالي القديم لحيدر آباد في الهند بركت شاه. www.Haber7.com،
وللأمثلة الأخرى في هذا الأمر يمكنكم الاطلاع على: البروفسور. د. م. حميد الله، تاريخ القرآن الكريم، ص: ٨٧، الأعظمي، المرجع السابق، ١١٤، ١٣٨، ١٥٣ - ١٥٧، ١٧٩.



وبهذا كان يعلَّم القرآن الكريم لسائر الناس كما قرأه النبي ﷺ حرفاً حرفاً. وقد أظهروا كامل الاعتناء في هذا الشأن، فمنعوا أن يتعلم أحد بنفسه من شيء مكتوب عليه القرآن بل لا بد من معلم مؤهل يستمع إليه المتعلم إلى جانب قراءة المكتوب من القرآن الكريم. وهكذا فقد نشأ في هذا الشأن فرع من العلوم يطلق عليه علم التجويد يعلم الكيفية التي يتلى فيه القرآن الكريم حرفاً حرفاً، ولا يمكن تعلمه إلا بتطبيقه على معلم ماهر، وطريقة تعلم القرآن هذه من فم متقن استمر العمل بها حتى يومنا هذا بلا انقطاع.

ويخبرنا عبيد الله بن عبد الله قَالَ:

«إِنَّ أَوَّلَ من جمع القرآن في مصحف وكتبه عثمان بن عفان، ثم وضعه في المسجد فأمر به يقرأ كل غداة» (ابن شبة، تاريخ المدينة، ص ٧)

لقد أمر عثمان بن عفان رضي الله عنه الناس بكتابة المصاحف بعدما أتمّ جمع المصحف أي جمعه في نسخة واحدة، ما يعني أنه حثهم على تسجيل نسخ خاصة منه.[١٩] لأن الناس لم يكتبوا القرآن من قبل إلا ما قد يكون كتبوه من بعض السور والآيات، فأصبح بإمكانهم نسخ القرآن كاملاً بعد أن جُمِع جميع آياته وسوره بين دفتي مصحف واحد مع انتهاء نزول الوحي من لجنة موثوقة، وبعد تصديق آلاف الحفاظ من الصحابة رضي الله عنهم.

١٩. ابن شبة، تاريخ المدينة،جدة ١٣٩٩، ص ٩٩٣، ٩٩٨، ١٠٠٢.



وبالنظر إلى هذا فقد أمرت السيدة عائشة رضي الله عنها من مولاها المعتق أبي يونس أن يكتب لها مصحفاً.[٢٠]

وأما مولى عمر المعتق عمرو بن رافع فقد كان يكتب مصحفاً في حياة زوجات النبي ﷺ، حتى أنه كتب مصحفاً لحفصة رضي الله عنها.[٢١]

ثم إنه ثمة تدابير أخرى اتخذت لحفظ القرآن من أدقّ الأخطاء، «وكان الحجاج وكّل عاصما الجحدري وناجية بن رمح وعليّ بن أصمع بتتبّع المصاحف، وأمرهم أن يقطعوا كل مصحف وجدوه مخالفا لمصحف عثمان، ويعطوا صاحبه ستين درهما» (ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، دار الكتب العلمية، بيروت، ص ٣٧)

إن أمثال هذه اللّجان وجدت على الدوام، فعلى سبيل المثال في تركيا مؤسسة اسمها «لجنة تدقيق المصاحف والآثار الدينية»، تقوم إحدى وظائفها الأساسية على الحيلولة دون ظهور أي خطأ في القرآن الكريم. ولذا فإنه من غير الممكن تغيير حتى حرف واحد من القرآن الكريم الذي يحفظه مئات الآلاف من الحفّاظ في كل عصر، وتوجد منه ملايين النسخ المطبوعة والمكتوبة، وفي حال طرأ عليه خطأ مطبعي فإنه سرعان ما يصحح.[٢٢]

---

٢٠. انظر: مسلم، المساجد، ٢٠٧؛ أبو داود، الصلاة، ٥/٤١٠؛ الموطأ، صلاة الجماعة، ٢٥.

٢١. انظر: الموطأ، صلاة الجماعة، ٢٦؛ الهيثمي، ٦، ٣٢٠؛ ٧، ١٥٤.

٢٢. وأما الميزة الأخرى فهي: وجود رسم خط وكتابة خاصّين بالقرآن الكريم، ويطلق



وفي عُرف الإسلام لا بد للشخص ليصبح معلماً للقرآن الكريم من الحصول على إجازة مِن معلم خبير أو ثلّة من المعلمين، حيث يمكن من خلال هذا المنهج التأكّد من تعلّم الطالب القرآن كما يجب إضافةً إلى التأكّد من خلوّ النسخة الموجودة بين يديه من أي خطأ. وهذا المنهج استمر تطبيقه إلى وقتنا الحالي. ثم إنه في آخر المطاف يعطي الشيخ طالبه إجازة تحتوي على أسماء شيوخه وشيوخهم في سلسلة تنتهي بالنبي ﷺ. ثُمَّ يصدِّقُ الشيخ على أن تلميذه قد أتمّ تعلّم القرآن كله على نحو صحيح عنه كما تعلّمه هو عن شيوخه.(٢٣)

وكما لوحظ فإن حفظ القرآن بأمتن الطرق قد استمر إلى يومنا هذا في شكل كتابته وقراءته وحفظه من فم إلى فم بحضور

على هذا الخط اسم «الخط العثماني» و "الخط الاصطلاحي". ويعد هذا الخط حسبما بينه العديد من العلماء رسم خط توقيفي، أي أنه مستند إلى تعاليم وإشارات النبي ﷺ. فكتابة بعض الكلمات على نحو مخالف لقواعد الكتابة مبني على حكمة، وهي تشير إلى مقاصد لطيفة. (وهنا يجب علينا أن لا ننسى أن قواعد اللغة العربية وضعت بعدما استخرجت من القرآن الكريم)، بل إنه تم تدوين علم تحت اسم "علم رسم القرآن". وهذا العلم كعلم القراءات مختص بعلوم القرآن لا غير، وبواسطة هذا العلم أضحى من الممكن أن نعرف وجود اختلافات في الكلمات بين الخط الاصطلاحي والخط القياسي وحكمها. موضوعات هذا العلم حروف المصاحف المكتوبة بأمر عثمان، باعتبار الأحوال كالزيادة والحذف والإبدال والفصل والوصل. ثم إن تعليم وتعلم هذا العلم فرض كفاية حيث أن غاية هذا العلم وفائدته عظيمة للغاية.

٢٣. البروفسور . د. م. حميد الله، تاريخ القرآن الكريم، ص ٨٧، ٥٣، ٥٦.



القراء،[٢٤] وهذا يعني تطبيق الطريقة الثالثة، إضافة إلى القراءة والتحفيظ في حفظ القرآن الكريم، وهي التربع بقصد التعلم بحضور قارئ ماهر مجاز من الأساتذة.

٣. حَمْلَةُ الصحابة لتعلّم القرآن وتعليمه

لقد أوْلَى المسلمون تعليم القرآن الكريم أهمية كبيرة على مدى التاريخ، لحث الله تعالى ورسوله على قراءة القرآن الكريم وفهمه واجتماعهم لذلك.[٢٥]

لقد كان النبي ﷺ يهتم بالمتقنين للقرآن الكريم في كل مكان، كما كان لهم الأولوية على الدوام، حيث كان يفضل من هو أعلم بالقرآن على غيره حين توليته الوظائف الإدارية العامة كالإمامة أو الولاية أو القيادة كما أنه عندما سئل أيُّ الشهداء له الأولوية في الدفن دون غيره قدم الأعلم بالقرآن.[٢٦]

٢٤. يمكن الاطلاع على الآثار التالية لمعرفة مدى متانة الطرق والمناهج المتبعة في هذا الموضوع من قبل علماء الإسلام: البروفسور. د. م. م. الأعظمي.
The History of the Qur'anic Text from Revelation to Compilation
البروفسور . د. م. حميد الله. تاريخ القرآن الكريم

٢٥. فاطر، ٢٩؛ ص، ٢٩؛ طه، ١٢٤ - ١٢٦؛ البخاري، فضائل القرآن، ٢١؛ مسلم، الذكر، ٣٨؛ ابن ماجة، المقدمة، ١٧.

٢٦. مسلم، المساجد ٢٩٠، المسافرين ٢٦٩؛ الترمذي، فضائل القرآن، ٢ / ٢٨٧٦؛ النسائي، الجنائز، ٨٦، ٨٧، ٩٠، ٩١؛ أحمد، ٤، ٢١٨؛ الهيثمي، ٧، ١٦١؛ ابن هشام، ٤، ١٨٥؛ ابن سعد، ٥، ٥٠٨.



وكان رسول الله ﷺ قد دفع راية بني مالك بن النجار إلى عمارة بن حزم، فأدرك رسول الله ﷺ زيد بن ثابت فأعطاه الراية. قال عمارة: يا رسول الله، لعلك وجدت علي ! قال:

"لَا وَاَللهِ، وَلَكِنْ قَدّمُوا الْقُرْآنَ، وَكَانَ أَكْثَرَ أَخْذًا لِلْقُرْآنِ مِنْك، وَالْقُرْآنُ يُقَدّمُ..." وهو كذلك أمر بحمل راية قبيلتي الأوس والخزرج من الأكثر علماً في القرآن. (الواقدي، ٣، ١٠٠٣)

يقول الرسول ﷺ في حجة الوداع:

"يا أيها الناس! خذوا من العلمَ قبل أن يُقبضَ العلمُ وقبل أن يرفع العلم..."

فسأله أعرابي قائلاً: «يا نبي الله كيف يرفع العلم منا وبين أظهرنا المصاحف وقد تعلمنا ما فيها، وعلمناها نساءنا وذرارينا وخدمنا...» (أحمد، ٥، ٢٦٦؛ الهيثمي، ١، ٢٠٠. انظر: الترمذي، العلم، ٥ / ٢٦٥٣)

وهذا القسم من هذه الرواية يبين لنا مستوى أصحاب النبي في حرصهم على كتابة القرآن وتعلمه وتعليمه. وقد كان الصحابي يدخل بيته فتباشره زوجته بهذين السؤالين، كم آية من القرآن الكريم نزلتْ اليوم؟ وكم حفظتَ من أحاديث النبي ﷺ؟[٢٧]

ويفيد عبادة بن الصامت المعين معلماً لأصحاب الصفة

٢٧. عبد الحميد كشك، في رحاب التفسير، ١، ٢٦.



أنه كان يعلم الناس القرآن الكريم والكتابة، فكان وغيره من الصحابة يستضيفون الناس القادمون من خارج المدينة في بيوتهم، ويكرمونهم ويعلمونهم القرآن الكريم.(٢٨)

وكان أبي بن كعب ﷺ يعلم الوفود القادمة إلى المدينة القرآن والفقه.(٢٩)

لقد بعث النبي ﷺ خالد بن الوليد ﷺ في دعوة بني الحارث إلى الإسلام، فكان في رسالة خالد إلى النبي ﷺ: أنه دعا قبيلة بني الحارث إلى الإسلام ويقول بعدما أعلم أنهم دخلوا الإسلام من دون حرب:

«...وأنا مقيم بين أظهرهم آمرهم بما أمرهم الله به وأنهاهم عما نهاهم الله عنه وأعلّمهم معالم الإسلام وسنّة النبي ﷺ حتى يكتب إليّ رسول الله. والسلام عليك يا رسول الله» (محمد حميد الله، الوثائق السياسية، بيروت ١٤٠٧، ص، ١٦٥-١٦٦)

كان دأب النبي ﷺ إبقاء رؤساء الوفود القادمة إلى النبي ﷺ للدخول في الإسلام في المدينة المنورة مدة تسمح لهم بتعلم القرآن الكريم وأركان الدين وفهم الإسلام من خلال رؤيتهم

٢٨. انظر: أبو داود، البيوع، ٣٦ / ٣٤١٦؛ ابن ماجة، التجارات، ٨؛ أحمد،٥، ٣١٥، ٣٢٤؛ ابن الأثير، أسد الغابة، ٣، ١٦٠.

٢٩. ابن سعد، ١، ٣١٦ ـ ٣١٧، ٣٤٥؛ الواقدي، ٣، ٩٦٨ - ٩٦٩.



بأنفسهم ذلك على أرض الواقع. فعلى سبيل المثال:

حدثنا شهاب بن عَبَّادٍ، أنه سمع بعض وفد عبد القيس وهم يقولون: قدمنا على رسول الله ﷺ فاشتد فرحهم بنا، فلما انتهينا إلى القوم أوسعوا لنا، فقعدنا فرحب بنا النبي ﷺ، ودعا لنا،...ثم أقبل على الأنصارِ فقال:

"يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ، أَكْرِمُوا إِخْوَانَكُمْ، فَإِنَّهُمْ أَشْبَاهُكُمْ فِي الْإِسْلَامِ أَشْبَهُ شَيْءٍ بِكُمْ أَشْعَارًا، وَأَبْشَارًا أَسْلَمُوا طَائِعِينَ غَيْرَ مُكْرَهِينَ، وَلَا مَوْتُورِينَ إِذْ أَبَى قَوْمٌ أَنْ يُسْلِمُوا حَتَّى قُتِلُوا"

قال: فلما أن أصبحوا قال:

"كَيْفَ رَأَيْتُمْ كَرَامَةَ إِخْوَانِكُمْ لَكُمْ، وَضِيَافَتَهُمْ إِيَّاكُمْ؟"

قالوا: «خير إخوان ألانوا فراشنا، وأطابوا مطعمنا، وباتوا، وأصبحوا يعلموننا كتاب ربنا تبارك وتعالى، وسنة نبينا ﷺ، فأعجبت النبي ﷺ وفرح بها، ثم أقبل علينا رجلاً رجلاً يعرضنا على ما تعلمنا، وعلمنا فمنا من علم التحيات وأم الكتاب، والسورة والسورتين، والسنن» (أحمد، جـ ٣، ٤٣٢؛ جـ ٤، ٢٠٦/ ١٧٨٣١)

وكما اتضح فقد كان النبي ﷺ يولي الوفود التي تزوره اهتماماً شديداً، ويطلب منهم عند عودتهم إلى بلدانهم أن يعلموا ما



تعلموه أهالي قبيلتهم،[٣٠] وهذا الاهتمام لم يكن مقتصراً على الوفود بل تعداه إلى القادمين. لما أسلم عمير بن وهب بعد مجيئه المدينة، قال النبي ﷺ:

"فَقِّهُوا أَخَاكُمْ فِي دِينِهِ، وَأَقْرِئُوهُ الْقُرْآنَ!.." (ابن هشام، ٢، ٣٠٦-٣٠٩؛ الواقدي، ١، ١٢٥-١٢٨؛ الهيثمي، ٨، ٢٨٤-٢٨٦)

لقد كان أصحاب الصفة الذين يقضون أوقاتهم في المسجد على الدوام يتعلمون من جانب وينشؤون طلبة ومعلمين بعملهم الدؤوب من جانب آخر.

ثم إن النبي ﷺ وخلفاؤه من بعده كانوا يبعثون بالكثير من الصحابة معلمين إلى مختلف أنحاء العالم، يعلمون الناس القرآن والسنة.[٣١]. فمثلاً لما أُرسل مصعب بن عمير إلى المدينة معلماً أخذ يعلّم الناس الإسلام ويقرأ القرآن الكريم كلما سنحت له الفرصة.[٣٢] وأما أبو الدرداء المرسَل إلى دمشق (الشام) فقد عاش لوقت طويل هناك وأسس حلقة علم مشهورة جداً، وقد تجاوز عدد طلبته الذين تحت إشرافه ١٦٠٠، فقسَّم طلبته إلى عشر مجموعات وعيّن لكل مجموعة شيخاً من الذين قام

٣٠. النسائي، الأذان، ٨؛ أبو داود، رمضان، ٩.

٣١. الدارمي، السنن، ١، ١٣٥، (تحقيق دهمان)؛ ابن سعد، ٦، ٣.

٣٢. البخاري، مناقب الأنصار، ٤٦؛ ابن هشام، ٢، ٤٣ - ٤٦؛ أبو نعيم، دلائل النبوة، ١، ٣٠٧.



بتنشئتهم وتابع تقدمهم بالترتيب. والمجتازون لهذا المستوى الأساسي، يصير بإمكانه أخذ الدرس منه مباشرة، وبهذا فإن طلبته المتقدمون كانوا يتلقَّون العلم عن أبي الدرداء إضافة إلى تعليمهم من دونهم في المستوى من الطلبة.(٣٣) وهذه الطريقة اتبعها كثير من الصحابة في بقاع مختلفة.(٣٤)

ثم إن عمر ﵁ بعث يزيد بن عبد الله إلى الأعراب القاطنين بعيداً عن المدينة، وعين أبا سفيان مشرفاً على القبائل البدوية بإرساله إليها ليثبت مستوى تعلمهم. وهو وظف ثلاثاً من الصحابة في المدينة وحدها لتعليم الأولاد القرآن الكريم حيث عين لهم كل شهر ١٥ درهماً لقاء ذلك. وأمرهم بتعليم الجميع حتى الراشدين خمس آيات على الأقل من الآيات السهلة.(٣٥)

وَعَنْ كُلَيْب بن شهاب قال: «كان عليٌّ في الْمسجد -أحسبُهُ قال: مسجد الكوفة- فسمع ضجَّةً شديدةً، فقال: «ما هؤلاءِ؟» فقال: «قوْمٌ يقرءون القرآن، أو يتعلّمون القرآن»، فقال: «أما إنّهم كانوا أحبَّ النَّاسِ إلى رسول اللَّه ﷺ»» (الهيثمي، ٧، ١٦٢)

٣٣. الذهبي، سير أعلام النبلاء، ٢، ٣٤٤ - ٣٤٦.

٣٤. البلاذري، الأنساب، ١، ١١٠؛ الحاكم، ٢، ٢٤٠، ٣٠٠؛ الفريابي، فضائل القرآن، ص: ١٢٩. انظر: مسلم، المسافرين، ٢٨٠؛ ابن عبد البر، الإستيعاب، ٣، ١١٧٣ / ١٩٠٧.

٣٥. البروفسور، د. م. م. الأعظمي، تاريخ القرآن، ص ١٢٧.



عَنْ أبي سعيد، قال:

«أصحابُ النَّبيِّ ﷺ إذا جلسوا كان حديثُهُم -يعني الْفقه- إلّا أن يقرأ رجلٌ سورةً أو يأمر رجلًا بقراءة سورةٍ» (الحاكم، ١، ١٧٢ / ٣٢٢)

ويقول أبو نضرة من التابعين:

«كان أصحاب رسول الله ﷺ إذا اجتمعوا تذاكروا العلم (الأحاديث) وقَرَؤُوا سورةً» (الخطيب البغدادي، الفقيه والمتفقه، بيروت، ١٣٩٥، ٢، ١٢٦)

عَنْ مُجَاهِدٍ، قَالَ: «كان لِعَبْدِ الرّحمن بن أبي ليلى بيتٌ فيه مصاحف يجتمع إليه فيه الْقرّاء قلّما تفرّقوا إلَا عن طعام» (ابن سعد، ٦، ١١٠؛ ابن أبي داود، المصاحف، ص ١٥١)

وكلام ابن مسعود رضي الله عنه التالي تملؤه العبرة:

«والله الذي لا إله غيره، ما أنزلت سورة من كتاب الله إلا أنا أعلم أين أنزلت، ولا أنزلت آية من كتاب الله إلا أنا أعلم فيم أنزلت، ولو أعلم أحدا أعلم مني بكتاب الله، تبلغه الإبل لركبت إليه» (البخاري، فضائل القرآن، ٨/ ٥٠٠٢)[٣٦]

٣٦. إن العناية التي أولاها المسلمون فيما يتعلق بتعلم القرآن الكريم وحفظه أولوا ما يماثلها لأحاديث النبي ﷺ. وهنا نسرد بعضاً من الأمثلة التي تؤيد ذلك: فهذا **أبو أيوب الأنصاري** رضي الله عنه يرحل من المدينة إلى **مصر** ليسأل **عقبة بن عامر** عن حديث سمعه من النبي ﷺ فلما قدم قال له: حدِّثْنا ما سمعته من رسول الله ﷺ في ستر المسلم، لم يبق أحد سمعه غيري وغيرك. فلما حدَّثه ركب أبو



وثمّة مسألة مهمة ألا وهي أن الصحابة ﷺ أولوا القرآن الكريم عند تعليمه تعظيماً كبيراً، وعن عبد اللَّه بن مسعود أنّه كان يُقْرِئُ الرّجل الْآية، ثمّ يقول: «لَهِيَ خيرٌ ممّا طلعت عليه الشّمس، أو ممّا على الْأرض من شيء» حتّى يقول ذلك في الْقرآن كلّه. (الهيثمي، ٧، ١٦٦)

أيوب راحلته وانصرف عائداً إلى المدينة، وما حلَّ رحله. (الحاكم، معرفة علوم الحديث، ص: ٧ - ٨؛ ابن عبد البر، العلم، ص: ١٢٣)

وهذا **جابر بن عبد الله الأنصاري** ﷺ بلغه حديثٌ عن صحابي بالشام سمعه من رسول الله ﷺ فاستعظم أن يفوته شيء من حديث رسول الله ﷺ فاشترى بعيرا وشد عليه رحله، وسافر مسيرة شهر حتى قدم الشام، فإذا هو عبد الله بن أنيس. فمرة من المدينة إلى الشام وأخرى إلى مصر. (انظروا: البخاري، العلم، ١٩؛ الحاكم، المعرفة، ص: ٨ - ٩؛ ابن عبد البر، العلم، ص: ١٢٧)

يقول **أبو العالية**: (إنْ كنّا نسمع الرّواية بالْبصرة عن أصحاب رسول اللّهِ ﷺ، فلمْ نرض، حتّى ركبنا إلى الْمدينة، فسمعناها من أفواههم) (الدارمي، المقدمة، ٤٧ / ٥٧٠؛ الخطيب البغدادي، الكفاية في علم الرواية، بيروت، ١٩٨٨، ص ٤٠٢ - ٤٠٣)

ويقول **سعيد بن المسيب** رحمه الله: (كنت أرحل الْأيّام وَاللّيالي في طلب الْحديث الْواحد) (ابن كثير، البداية، ٩، ١١٨)

وأما **عمر بن عبد العزيز** فكتب إلى أبي بكر بن حزم عامله على المدينة: «انظر ما كان من حديث رسول الله ﷺ فَاكْتُبْهُ، فإنّي خفتُ دروس العلم وذهاب العلماء، ولا تقبل إلّا حديث النّبِيِّ ﷺ، ولْتفشوا العلم، ولْتجلِسُوا حتّى يُعَلَّمَ من لا يَعْلَمُ، فإنّ العلْمَ لا يَهْلِكُ حتّى يكون سرًّا» (البخاري، العلم، ٣٤)

عن عبد الله بن دينار، قال: كتب عمر بن عبد الْعزيز إلى الْآفاق: «انظروا حديث رسول الله ﷺ فَاجمعوه واحفظوه؛ فإنّي أخاف دروس العلم وذهاب العلماء» (أبو نعيم، تاريخ أصبهان، بيروت ١٤١٠، ١، ٣٦٦)



٤ . كون القرآن الكريم معجزة

لقد منَّ الله تعالى على عباده ببعض الأوصاف السامية كالعقل والإرادة والتفكّر لإيصالهم إلى الهداية، وعلاوة على ذلك وظف بعضهم ممن استثناه وخصه من الناس الصالحين منهم في الرسالة والنبوة.

وتجري على يد الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام معجزات تثبت حقيقة دعوتهم وصحة كلامهم. وكل نبي تجري على يده العديد من المعجزات التي تتناسب وعصره، وكان الطبُّ في زمن النبيِّ عيسى عليه السلام قد بلغَ أوجَه، وكان الأطباء هم الأكثر قبولاً لدى الناس، ولذلك أعطي عيسى عليه السلام معجزات أعيت الأطباء مثل إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذنِ الله، وفي عهد النبيِّ موسى عليه السلام كان السحرُ هو السائد في الميدان، ولذا معجزاته كانت لإرغام السحرة. وقد كانت البلاغة والفصاحة والطلاقة والأدب هي السائدة إلى حدٍّ كبير في زمن النبي ﷺ. لذا كانت المعجزة التي أُعطيَت للنبيّ ﷺ هي القرآن.[٣٧]

بما أنّ الأوصاف الرّئيسية للإنسان التي تفرّقه عن سائر المخلوقات هي العقل والبيان فإن إعجاز القرآن الكريم الكتاب

٣٧. العنكبوت، ٥٠ ـ ٥١؛ البخاري، الاعتصام، ١، فضائل القرآن، ١؛ مسلم، الإيمان، ٢٧٩.



الخاتم والمتكامل أكثر ما تحقق في ميدان العقل والبيان، وإلى جانب معجزة القرآن الكريم الخاصة بالنبي ﷺ والباقية إلى يوم الدين فإنه ﷺ له الكثير من المعجزات المقيدة بالزمان والمكان، وهناك الكثير من المجلدات التي تتحدث عنها،[٣٨] وسنتحدث في القسم الأخير عن بعضها.

٥. الجوانب الإعجازية في القران

يترك القرآن الكريم الإنسان عاجزاً عن الإتيان بما يشابهه، في الكثير من جوانبه من نظم وفصاحة وبلاغة وتأثير على القلوب إلى جانب ميزة وضع القوانين (التشريع) وإخباره بالغيب.[٣٩]

لقد تحدّى الله تعالى المشركين لمّا لم يؤمنوا بالقرآن الكريم، حيث طلب منهم الاستعانة بكل ما شاؤوا من المخلوقات والإتيان بكتاب مماثل للقرآن الكريم، وفي حال عجزوا عن ذلك فعشر سور منه وإلاّ فواحدة،[٤٠] وفي آخر المطاف فإن عجزوا عن الإتيان بمثله فبما يشبهه:

٣٨. وعلى سبيل المثال يمكنكم الاطلاع على: البيهقي، دلائل النبوة، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٥؛ أبو نعيم الأصفهاني، دلائل النبوة، حلب: المكتبة العربية، ١٩٧٠ ـ ١٩٧٢؛ السيوطي، الخصائص الكبرى، بيروت: دار الكتب العلمية.

٣٩. البروفسور.د. م. س. ر. البوطي، من روائع القرآن، بيروت: الرسالة، ١٤١٦، ص ١٢٥.

٤٠. القصاص، ٤٩؛ الإسراء، ٨٨؛ الطور، ٣٤؛ هود، ١٣؛ يونس، ٣٧-٣٨.



﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُوْرَةٍ مِنْ مِثْلِه وَادْعُوْا شُهَدَاءَكُم مِنْ دُوْنِ اللهِ إِنْ كُنْتُم صَادِقِيْنَ. فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ التِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِيْنَ﴾ (البقرة، ٢٣-٢٤)

وعبارة "ولن تفعلوا" الأخيرة هي من اليقين والقطعية حيث لا يمكن ظهور حكم كهذا إلا من ذاتٍ لا يحدُّ علمها وقدرتها كاملة لا يشوبها أيُّ نقص؛ أي من الله تعالى.كما أنه في الحقيقة ليس بإمكان أيِّ أحدٍ التنبؤ بالغيب واستخدام عبارات تفيد القطع، ولا يمكن إطلاق حكم من البشر يتعلق بالمستقبل المجهول والمغيب على هذا النحو من البتِّ.

إن النصوص الإلهية المظهرة عجزهم بلغت منهم كل مبلغ فأثار ذلك حميتهم وزاد من إصرارهم، لكنهم لم يتمكنوا من إجابته بأي شيء. فتحدثت هذه الآية عن عجزهم وتناقلته الأفواه عبر القرون والأحقاب حتى فاضت به الآفاق، فسجلت ضعفهم وكأنها ختمت على ألسنتهم.(٤١)

ثم إن المشركين لما عجزوا عن مقابلة تحدي القرآن لهم قاموا بدلاً عن ذلك بتصرفات ومعاملة عدوانية كتكذيبه

٤١. مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن، بيروت ٢٠٠٣، ص ١٤٢.



والتحريض ضده والاحتقار والافتراء. ولكنهم بقولهم:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ (فصلت، ٢٦)

مهما كانوا منكرين ولكنهم في الحقيقة أبدوا انهزامهم الكلي أمام القدرة الإلهية. وانهزامهم هذا لا يزال حتى يومنا هذا.

أ) فصاحته، وبلاغته، ونظمه

ليس القرآن الكريم بشعر ولا نثر، بل هو أثر لا نظير له في أسلوب يضم مزايا في بنيته. وله روعة لا توجد في الشعر والموسيقا، فما مِن رتابة تنجم عن قراءته أو الاستماع إليه على الدوام، حيث تأخذ كل واحدة من حواس الإنسان نصيبها منه بدرجة متساوية.[٤٢]

«إن القرآن الكريم يتناول من الكلمات المترادفة أدقّها دلالة، وأتمها تصويراً بالنسبة إلى نظائرها. فإذا استنفدت اللغة طاقتها ولا تزال بقية من المعنى أو الصورة شاردة وراء حدود اللغة، اتسعت لها الكلمة القرآنية وشملتها عن طريق ما تتسم به من جرس ووزن وإيقاع. ولن تعثر مهما حاولت على أي ضابط لهذا الجرس والوزن والإيقاع، مؤملاً أن تطبقه في كلامك وتعبيرك.

٤٢. البروفسور. د. محمد عبد الله دراز، النبأ العظيم، دار القلم، ص١٠٢.



إنما هو الإحساس الذي يفيض به شعور القارىء عند تلاوته لهذه الكلمات أو سماعه لها مسبوكة مع بعضها، قائمة ضمن هيكلها القرأني الفريد»[٤٣]

يقول ابن عطية:

«والصحيح أن الإتيان بمثل القرآن لم يكن قط في قدرة أحد من المخلوقين، ويظهر لك قصور البشر في أن الفصيح منهم يصنع خطبة أو قصيدة يستفرغ فيها جهده، ثم لا يزال ينقحها حولا كاملا، ثم تعطى لآخر نظيره فيأخذها بقريحة جامة فيبدل فيها وينقح ثم لا تزال كذلك فيها مواضع للنظر والبدل، كتاب الله لو نزعت منه لفظة ثم أدير لسان العرب في أن يوجد أحسن منها لم يوجد. ونحن تبين لنا البراعة في أكثره ويخفى علينا وجهها في مواضع لقصورنا عن مرتبة العرب يومئذ في سلامة الذوق وجودة القريحة وميز الكلام»[٤٤]

إن القرآن الكريم إلى جانب كونه متفرداً بأسلوب يختص به مختلف عن أنواع الأدب المعروفة فإنه يضم جميع أنواع الأدب هذه على النحو الأفضل. ويفيد مواضيع كالقصة والموعظة والتاريخ والتشريع والجدل والمناظرة والآخرة والجنة والنار

٤٣. البوطي، من روائع القرآن، ص ١٤٠.

٤٤. ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، بيروت، ١٤١٣، ١، ٥٢.



وآيات الترغيب والترهيب ضمن أسلوب خاص متكامل في أعلى المعاني وفي أعلى مستوى من البلاغة والفصاحة.

يؤثر القرآن الكريم على القلوب: ورد أن أبا سفيان بن حرب، وأبا جهل بن هشام، والأخنس بن شريق، خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله ﷺ، وهو يصلي من الليل في بيته، فأخذ كل رجل منهم مجلساً يستمع فيه، وكل لا يعلم بمكان صاحبه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريق فتلاوموا، وقال بعضهم لبعض: «لا تعودوا، فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئاً» ثم انصرفوا... حتى إذا كانت الليلة الثانية والثالثة أخذ كل رجل منهم مجلسه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريق، فقال بعضهم لبعض: «لا نبرح حتى نتعاهد ألا نعود»، فتعاهدوا على ذلك، ثم تفرّقوا.[٤٥]

وذكر أبو عبيدة أنّ أعرابيًّا سمع رجلا يقرأ: ﴿**فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِيْنَ**﴾ (الحجر، ٩٤) فسجد وقال: «سجدتُ لفصاحته» وكان موضع التّأثير في هذه الْجملة هو كلمة اصدع في

٤٥. ابن هشام، ١، ٣٣٧ ـ ٣٣٨؛ تاريخ الطبري، ٢، ٢١٨ ـ ٢١٩؛ ابن الأثير، الكامل، ٢، ٦٣-٦٤؛ ابن سيّد الناس، عيون الأثر، ١، ٩٩؛ الذهبي، تاريخ الإسلام، ص ١٦٠ ـ ١٦١؛ ابن كثير، البداية، ٣، ٤٧؛ الحلبي، ١، ٤٦٢.



إبانتها عن الدّعوة والْجهر بها والشّجاعة فيها، وكلمة بما تؤمر في إيجازها وجمعها.

وسمع آخر رجلًا يقرأ:

﴿فَلَمَّا اسْتَيْئَسُوا مِنْهُ خَلَصُوْا نَجِيًّا﴾ (يوسف، ٨٠)

فقال: «أشهد أنّ مخلوقًا لا يقدر على مثل هذا الْكلام»[٤٦]

وإن الأعراب كانوا البالغين القمّة بين الناس في البلاغة والفصاحة.

ثم إن القرآن الكريم في الوقت ذاته يخاطب الناس أجمعين على اختلاف أمكنتهم وأزمنتهم ومستوياتهم العلمية بما يتناسب ومستواهم العلمي، فقد تكون آية ما متعددة المفاهيم بحيث يمكن أن تفهمها الأجيال الأولى على حسب أوضاعها والأجيال الآتية بعدها تفهمها بما وصلت إليه من المستويات العلمية.

يقول مصطفى صادق الرافعي الأديب الكبير:

«من معجزاتِ القرآن الكريم أنه يدَّخرُ في الألفاظِ المعروفة في كل زمن، حقائقَ غيرَ معروفةٍ لكلِّ زمن، فيجليها لوقتها حين يضجُّ الزمانُ العلميُّ في متاهتِه وحيرتِه»[٤٧]

٤٦. ابن عاشور، ١، ١٠٧.

٤٧. وحي القلم، الكويت، ٢، ٦٦.



ب) إخباره عن الغيب

يخبر القرآن الكريم عن الغيب، وهذه الأخبار تظهر لنا أنه معجزة ظاهرة، ولم يكن بمقدور أي اكتشاف منذ ١٤٠٠ سنة تكذيب أي منها ابتداء بالوقائع التاريخية الغابرة وصولاً إلى الحوادث التي ستظهر في المستقبل على الرغم من تعرضها للكثير من الأمور العلمية والفنية. في حين أن أشْهَرَ موسوعات العالم في يومنا هذا يلزم تصحيحها وتجديدها بين الحين والآخر بمجلدات إضافية.

وقد وجدت بعض بقايا معلومات عن هلاك قومي عاد وثمود وطوفان نوح، لكنها على هيئة أساطير، ولكن القرآن الكريم قدمها للإنسانية ضمن إطار جعلها مصدقة من فلسفة العلم والتاريخ.

ثم إنّ القرآن أخبر عن المستقبل أيضاً، ولنسرد بعضاً من ذلك:

قامت حرب بين الروم والفرس تغلب فيها الأخيرون على الروم. فقال المشركون الذين رأوا أن هذا الوضع لصالحهم ضد المسلمين: «لقد ظننتم أنكم ستنتصرون بكتابكم السماوي، ها هم الفرس غلبوا الروم أهل الكتاب»، محاولين بذلك كسر عزيمة المؤمنين والمساس بإيمانهم، وعقب هذا أنزل الله تعالى على المؤمنين هذه الآيات التي ستبعث السرور في قلوبهم:

﴿الم. غُلِبَتِ الرُّوْمُ. فِي أَدْنَى الْاَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ. فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلّٰهِ الْاَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ. بِنَصْرِ اللهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيْزُ الرَّحِيْمُ﴾ (الروم، ١ - ٥)

لقد كانت الروم واقعة في ضعف شديد آنذاك، فلم يكن أحد يورد أي احتمال في إمكانية تغلبها بعد الهزيمة النكراء التي لحقت بها وكسرت من شوكتها، إلا أن القرآن الكريم أخبر أنها ستكون الغالبة وأكد ذلك بقوله:

﴿وَعْدَ اللّٰهِ لَا يُخْلِفُ اللّٰهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ اَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الروم، ٦)

وأخيراً تحقق وعد الله تعالى، وغلبت الروم الفرس في أقل من تسع سنوات حسبما اتفق عليه العلماء، وفي ذلك اليوم فرح المسلمون بانتصارهم على المشركين في غزوة بدر.[٤٨]

يقول الله تعالى لفرعون الذي لجأ إلى التمسك بحبل الإيمان وهو على وشك الغرق في البحر الأحمر:

﴿آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِيْنَ. فَالْيَوْمَ نُنَجِّيْكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُوْنَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيْرَاً مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُوْنَ﴾ (يونس، ٩١-٩٢)

٤٨. انظر: الترمذي، التفسير، ٣٠/ ٣١٩١ ـ ٣١٩٤؛ أحمد، ١، ٢٧٦؛ القرطبي، ١٤، ٣.



لقد تم العثور على جثة فرعون عقب أبحاث أجريت قبل زمن ليس بالبعيد، ويتم عرض هذه الجثّة الآن في متحف بريتيش (Biritsh Museum) الكائن في لندن في الصالة ٩٤ وهو في وضعية السجود ولا يزال يغطيه جلده وشعره.

ثم إن إخبار القرآن الكريم عن الكثير من الحوادث قبل وقوعها هو من قبيل إعلامه بالغيب، ومن بينها انتصارهم على المشركين في غزوة بدر،(٤٩) ودخولهم المسجد الحرام آمنين، وتمكنهم من فتح مكة،(٥٠) ودخول الناس في الإسلام أفواجاً،(٥١) وظهور الدين الإسلامي على سائر الأديان الأخرى،(٥٢) إلى جانب عدم معارضة القرآن الكريم،(٥٣) وأخيراً حفظ نص القرآن الكريم.(٥٤)

وإنه من المستحيل في حقه ﷺ إخباره عن حوادث من هذا النوع تدخل ضمن الغيب من عنده دون استناد إلى الوحي.

---

٤٩. القمر، ٤٥.

٥٠. الفتح، ١٦، ٢٧.

٥١. النصر، ٢.

٥٢. التوبة، ٣٣؛ الفتح، ٢٨؛ الصف، ٩.

٥٣. البقرة، ٢٣ - ٢٤.

٥٤. الحجر، ١٠. ولبعض الأمثلة يمكن الاطلاع على: يوسف الحاج أحمد، موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة المطهرة، دمشق، ٢٠٠٣، ص ٢٠ - ٢٤.



ج) تسليطه الضوء على الاكتشافات العلمية

يوجد في القرآن الكريم العديد من الآيات التي تسلط الضوء على التقدم العلمي والاكتشافات، وهذا من إخبار القرآن الكريم عن الغيب على نحو معجز.

إن غاية القرآن الأساسية هي تثبيت التّوحيد في القلوب وتوجيه وإرشاد الناس، ويقديم كل المواضيع التي تناولها على أساس هذه الغاية الرئيسية، وإلى جانب هذا فإن المعارف والمعلومات التي قدّمها للناس في المواضيع الدّاخلة في ميدان العلوم الطبيعية مطابقة للحقيقة. ولنعرض بعضاً من الأمثلة عليها:

يعطينا الإسلام بعض المعلومات الأصلية عن تناسل الإنسان وتشكل الجنين في الرحم والتي لم يتمكن الطب الحديث كشفها إلا متأخراً. وهذه المعلومات يفصِّلُها القرآن الكريم في الآية ٥ من سورة الحج والآيتين ١١ و ١٣ من سورة المؤمنون.

يعترف البروفسور الدكتور كيث ل. مور في أثره الذي صنفه في علم الأجنة بأن العلم مطابق للقرآن الكريم بل حتى أن القرآن يترأس العلم ويتقدمه بأمثلته وتعاريفه التي ذُكرت فيه وذلك بعدما أوضح الكاتب في أثره المراحل التي يمر بها الإنسان في الرحم وأعقب ذلك بأنه قارنها بما في القرآن الكريم. ونتيجة



للأبحاث التي قام بها كيث أعجب ووقع في حيرة في الله تعالى ورسوله ﷺ، ومِن ثَمَّ صدق معجزة القرآن الكريم هذه الواردة من قبل ١٤٠٠ سنة واطمأن لذلك، وقام بإضافة المعلومات التي حصل عليها من القرآن الكريم إلى الطبعة الثانية من كتابه المسمى (Before We Are Born: قبل أن نولد)، وعندما سئل:

"كيف توضح وجود هذه المعلومات في القرآن؟"

يجيب: "إن ذلك القرآن ليس إلا وحياً أنزل من قبل الله"(٥٥)

لقد تم اكتشاف ازدياد عدد المخلوقات وابتعاد المجرات عن بعضها بسرعة هائلة في السنوات الأخيرة، حيث إن المجرات العظيمة تبتعد عن بعضها البعض مع البعد الكائن بينها على نحو متناسب خطياً، ووفق هذا القانون يوضح أن الكائنات جميعها من أولها إلى آخرها تحت تصرف قوة لا محدودة، فمثلاً: تبلغ سرعة ابتعاد مجرة تبعد عنا ١٠ مليون سنة ضوئية ٢٥٠ كلم في الثانية، في حين مجرة أخرى تبلغ المسافة بيننا وبينها ١٠ مليار سنة ضوئية تبتعد هي الأخرى عنا بسرعة ٢٥٠ ٠٠٠ كلم في الثانية. ويشار إلى هذ الأمر في القرآن الكريم على هذا النحو:

﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوْسِعُوْنَ﴾ (الذاريات، ٤٧)

٥٥. غاري ميللر، The Amazing Qur'an ص ٣٤ ـ ٣٩.



إن ربنا عز وجل يحفظ الدنيا من النيازك وهي قطع تظهر من انفجار النجوم التي انتهت حياتها في السماء. وإن كوكبا المشتري وزحل بجاذبيتهما الكبيرة هما في موقع حارس لا يسمح للكثير من الأجسام بالمرور والتي قد تُلحِق الضرر بكوكب الأرض. وقد تظهر بعض النيازك التي تعبر هذين الكوكبين وتقترب من الأرض، وهذه المرّة يظهر أمامها حام آخر وهو القمر، وبما أنه ليس له غلاف جوي فإنّ كل نيزك ساًقط عليه يرتطم بسطحه، ويمكن رؤية الفوهات الناجمة عن الارتطام بسطح القمر حتى بواسطة منظار صغير.

وأما النيازك المتجاوزة حاجز القمر تبدأ بالاحتراق عند اجتيازها الغلاف الجوي في حال لم تكن كبيرة جداً، فتتفتت النيازك الناجمة عن الحادثة التي نطلق عليها اسم: (الشهب) في طبقة الغلاف الأوسط إلى ذرات صغيرة كالغبار قبل وصولها السطح، ثم تتحول كل واحدة من هذه الذرات الصغيرة إلى نواة لحبيبات المطر. إن الغلاف الجوي يحمي الأرض من الإشعاعات الخطيرة الآتية من الفضاء أيضاً. ويشار إلى هذه الحقائق في القرآن الكريم في هذه الآية:

﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾

(الأنبياء، ٣٢)



ومما مر يتضح أن القرآن الكريم في الوقت الذي يقوم فيه بتنظيم أفعال الإنسان وسلوكياته، يقوم من جهة أخرى بلفت الأنظار إلى أسرار الكائنات ويحثنا على قراءتها ككتاب وإظهار ما تحتويه من الأسرار بعد دراستها. لقد جاء في القرآن الكريم:

﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُم لَهُ بِخَازِنِيْنَ﴾ (الحجر، ٢٢)

ولقد اكتشف إلقاح الرياح للنباتات والسحب بعد انقضاء عصور على نزولها. وفي الآيتين ١٩ و٢٠ من سورة الرحمن:

﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ. بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ﴾

وهناك ما يشبه هذا في الآية ٥٣ من سورة الفرقان والآية ٦١ من سورة النمل.

إن الحقيقة المبينة في هذه الآيات هي معجزة للقرآن الكريم في عصرنا هذا، حيث ثبت في الاكتشافات المؤخرة وجود سد مجهول أو ستارة غير مرئية في مضيق جبل طارق يحول دون اختلاط ماء بحر الأبيض المتوسط بماء الأطلسي، وبهذا فلا يختلط ماء كل من البحرين محافظاً على تكوينته الأصلية، وقد أثبت القبطان كوستيوا أنه فيما بعد عُثِر على مانع وحاجز في نقاط اجتماع ماء في كل البحار التي تختلف في التركيبات.



وقد رأى أ. براون آيات متعلقة بالبحر، وبعد التفكر في الآيات التي تتحدث عن استخراج اللحم الطازج واللؤلؤ والمرجان من الماء المالح والعذب، وتسيير الرياح السفن الشراعية، سأل أحد المسلمين القاطنين في أحد سواحل البحر في الهند بعد وصوله إليها:

"أرَكب نبيكم البحر وسافر فيه؟" فأجابه: "لا فما نعرفه أنه لم يسافر في البحر"، فأيقن البحار الانجليزي أن القرآن لم يؤت للنبي ﷺ من طريق غير الوحي، وأسلم بعدما وجد أن كلام القرآن الكريم أصح وأدق معنى بعد أن قارن ما فيه بالتوراة والإنجيل، ثم ذهب إلى مصر والتقى بالعلماء.

يقول الأستاذ في الرياضيات غاري ميللر:

"كانت ثمة نظرية معروفة تتعلق بالذرة قبل نبوة محمد، كان قد طرحها ديموكريتوس فيلسوف يوناني، وقد أوضح من أتى بعده أن المادة مكونة من جزيئات صغيرة جداً لا ترى بالعين المجردة ولا تنقسم تسمى بالذرات، ولكن العلم الحديث أثبت أنه بإمكان الذرة الجزء الأصغر في المادة والحاملة لخصوصيات المادة نفسها الانقسام والتفرق بالشكل نفسه، وهذه المعلومة تعد اكتشافاً حصل نتيجة التطورات الجارية في العصر السابق فهو حقيقة علمية، إلا أنه مما يلفت الانتباه أن هذه المعلومات قد أعلمنا بها قبل ١٤ عصراً في القرآن الكريم بقوله تعالى:



﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (يونس، ٦١)

تتحدث الآية عن مخلوقات أصغر من الذرة، وما من أدنى شك في أنه لا يمكن أن يكتب هذا أي كاتب عربي في هذا الوقت؛ لأن ما يُعرف حينها بصغره عندهم هو الذرة، وهذا دليل على أن القرآن لن يتقلص ولن يندرس على مدى الزمن."[٥٦]

د) إعجازه في النظام التشريعي

وإحدى جوانب القرآن الكريم الإعجازية أيضاً كماله وعظمته اللتين لا مثيل لهما في دائرة التشريع (سن القوانين). إن إعجاز التشريع في القرآن الكريم نابع من جهات متعددة منها

٥٦. للتفصيل في موضوع القرآن والعلم يمكنكم النظر في:

Dr. Maurice Bucaille, La Bible le Coran et la science: les ecritures saintes examinees a la lumiere des connaissances modernes, Paris: Seghers, ١٩٨٠ (The Bible, the Qur'an and science, trc. Alastair D. Pannell, Karaçi, t.y.); Afzalurrahman, Quranic Sciences, London ١٩٨١

أ. د. وحيد الدين خان، الإسلام يتحدى، اسطانبول، 1996.



تمكن أحكامه التي يحويها من تلبية احتياجات كل العصور، وتعذر وجود نقص فيه بحيث يسمح لأهل النقد المنصفين بانتقاد أي نقص فيه. وتمكّنه بسهولة من إيجاد حلول لمسائل تصعب على سائر القوانين، واشتمال أحكامه التي سنّها على حِكَم كثيرة، وأخيراً إيصاله إلى هذا النظام العظيم في مدة قصيرة جداً قياساً على غيره من الأنظمة.

لقد ظهر نظام عظيم فجأة في قوم لم يأخذوا نصيباً من العلم والحضارة والثقافة بواسطة نبي أمّي لا يعرف القراءة والكتابة وليس له تحصيل علمي. وهذا النظام بدوره وضع القانون المدني والأحوال الشخصية والأحكام المدنية وأحكام الحرب والسلام وغيرها وأظهرها على النحو الأجمل والأكمل. ثم إن القرآن الكريم إلى جانب إتيانه بمثل هذا النظام القانوني الملائم لكل العصور القادمة إلى يوم القيامة فإنه في الوقت نفسه جعله يتشكل في مدة قصيرة جداً. يقول المفسر القاسمي في هذا الصدد:«أنّ الخالق تعالى ربّى الأمّة العربية في ثلاث وعشرين سنة تربية تدريجية لا تتم لغيرها -بواسطة الفواعل الاجتماعية- إلّا في قرون عديدة» (محاسن التأويل، ١، ٣٧٢، البقرة، ١٠٧)

إن الميزات التي تحدثنا عنها حتى الآن ليست إلا بعضاً من جوانب القرآن الكريم الإعجازية.



٦. مشاعر الغربيين نحو القرآن الكريم

نشهد دخول الكثير من النّاس في فترة انجذاب تبدأ بقراءة القرآن والاستماع إليه قبل أن يكرمهم الله بالإسلام. تقول أكاديمية غربية أطلقت على نفسها اسم كريمة بعد اعتناقها الإسلام:

«إن القرآن الكريم يعمل عمل المرشد حتى بالنسبة للنبي ﷺ، ويحذره بين الحين والآخر، فلو كان القرآن من عنده لما كان على هذا النحو»

لقد أراد أستاذ الرياضيات غاري ميللر قراءة القرآن يوماً بقصد التغلب والعثور على خطأ فيه أثناء دعوته المسلمين إلى المسيحية...، فكان يتأمل أن يكون القرآن كتاباً قديماً بسيطاً كتب قبل ١٤ عصراً يدور الحديث فيه عن الصحراء وما يشابهها، ولكن ما قرأه في القرآن من المعلومات أوقعه في دهشة وحيرة، واكتشف أنه يحتوي على أمور لا توجد في أي من الكتب في العالم.

فظن أنه سيعثر في القرآن الكريم على حوادث جرت في حياة النبي ﷺ كموت أولاده وبناته من زوجته خديجة، ولكنْ لم يكن شيء من ذلك مذكور فيه، بل على العكس حيث وجدت فيه سورة كاملة باسم مريم، في حين أنه لا وجود لمثل ذلك في الإنجيل كتاب المسيحية المقدس، وما من سورة فيه باسم زوجته التي يحبها كثيراً عائشة رضي الله عنها ولا ابنته فاطمة رضي الله عنها، وقد زاد من حيرته

ذِكْرُ اسم سيدنا عيسى عليه السلام ٢٥ مرة مقابل ٤ مرات ذُكِرَ فيها اسم محمد ﷺ فانتهى به المطاف إلى اعتناقه الإسلام.

يستخدم الأميركي ساليك هذه الإفادة التي تلفت الانتباه:

«حينما أقرأ القرآن أتمكن من رؤية الأخطاء في حياتي، وأدرك أنه ليس من كلام البشر، لأنه ما من أحد من الناس يمكنه أن يعرفني بقدر ما يعرفني القرآن الكريم!»

يقول كوالسكي من بنسلفانيا:

«يقرأ القرآن الكريم ذهنية الإنسان، فعندما تشغل تفكيري مسألة ما أجد لها حلاً في القرآن الكريم على الفور، وأعتقد أن الكثير من الناس يوافقونني في أن القرآن الكريم يقرأ ذهنية البشر»

وأما دوغلاس ويليامز فيقول:

«تَلفّني سكينة وطمأنينة مدهشتان كلما قرأت القرآن الكريم، فأنا أقرأه في بعض الأحيان حتى الساعة ٣ أو ٤ حيث أنام في وقت متأخر من الليل، فالمعاني عميقة المعنى لآياته تعطيني طمأنينة كبيرة وتثري مستواي الفكري، ولا أذكر أني وصلت إلى هذا المستوى من قبل».





القسم الرابع

نبي الرحمة
محمد المصطفى ﷺ



نبي الرحمة
محمد المصطفى ﷺ

١ . طفولته وشبابه:

لقد ولد نبينا ﷺ في مكة سنة ٥٧١ من الميلاد في ١٢ من ربيع الأول الموافق ل ٢٠ من شهر نيسان في صباح يوم الإثنين قبيل طلوع الشمس حيث أكسب العالَم شرفاً.

يصل نسبه الشريف ﷺ إلى عدنان الذي يعد الأكرم من ذرية إسماعيل عليه السلام.[١] ينسب عليه الصلاة والسلام إلى العائلة الأعلى شرفاً في قبيلة قريش من طرف الأب والأم.

فأبوه عبد الله كان قد قصد الشام في تجارة وفي طريق العودة يتلقفه المرض في المدينة حيث توافيه المنية هناك قبل مولد النبي ﷺ بشهرين. وبعد ولادته عليه الصلاة والسلام ينشأ لدى مرضعته السيدة حليمة السعدية إلى السنة الرابعة من عمره حرصاً على حصوله على صحة أفضل ليتربى في بيئة أحسن

١. البخاري، مناقب الأنصار، ٢٨؛ ابن هشام، ١، ١ - ٣؛ ابن سعد، ١، ٥٥ - ٥٦.



وليتعلم العربية الفصيحة على أتم وجه. وعندما بلغ السادسة من عمره أخذته أمه آمنة بنت وهب تصحبهما الخادمة أم أيمن إلى المدينة لزيارة قبر والده عبد الله، وأثناء الرجوع مرضت السيدة آمنة وتوفيت في قرية الأبواء حيث دفنت هناك. وقفل النبي ﷺ عائداً إلى مكة وقد أضحى يتيماً من الأم هذه المرة، فضمه جده إلى رعايته، ولكن عبد المطلب ما لبث أن مات والنبي ﷺ في الثامنة من عمره آنذاك، فأخذه عمه أبو طالب وقد قام بحمايته بكل إخلاص وتضحية.

مرت مرحلتي الطفولة اليتيمة والشباب للنبي ﷺ بكل نزاهة وسمو، حيث اشتغل حيناً بالزراعة وبعدها بالتجارة، [٢] وقد عرف من قبل الجميع بأمانته وصدقه وعدله، فلقب «بالأمين» بعدما اكتسب احترام الناس والسمعة الحسنة، فأضحى الأمين علماً عليه كاسم ثان له، ولما بلغ ٢٥ من عمره كان يطلق عليه اسم الأمين فقط في مكة.[٣]

وقد كان المشركون يودعون أشياءهم الثمينة عند رسولنا الأكرم الذي سموه بمحمد الأمين وليس لدى أصحابهم. ثم إنه لما بدا خلاف بينهم فيمن سيضع الحجر الأسود في مكانه أثناء

٢. البخاري، الإجارة، ٢؛ أبو داود، الأدب، ١٧، ٨٢؛ الحاكم، ٣، ٢٠٠.

٣. ابن سعد، ١، ١٢١، ١٥٦.



ترميم الكعبة رضخ جميعهم لحكمه ﷺ، وهو بدوره كان قد حال دون حرب كبيرة بإيجاده حلاً للأمر بكل براعة.(٤)

لقد كان النبي ﷺ قبل البعثة الأسمى في المروءة بين قومه والأشرف نسباً والأحسن خلقاً، والأكثر رعاية لحق الجار والأحلم والأصدق والأبعد عن السوء وإيذاء الناس. فلم يكن ليسخر من أي أحد أو يتشاجر معه.(٥)

لَمّا بلغ النبي ﷺ الخامسة والعشرين من عمره أعجبت السيدة خديجة رضي الله عنها سيدة مكة النبيلة بأمانته وعرضت عليه الزواج منها، كانت رضي الله عنها تكبر النبي ﷺ بخمس عشرة سنة، أرملة ولها أولاد، وقد أنشأ النبي ﷺ معها أسرة نزيهة ومطمئنة إلى أبعد الحدود لا مثيل لها، فانقضت من مرحلة الشباب ٢٤ سنة الأولى مع خديجة لا غير. وأما السنوات الخمس التي بعد ذلك فقضى بعضها وحيداً والبعض الآخر مع زوجة ثيِّب وهي أمّنا سودة رضي الله عنها، وزيجاته التي حدثت بعد ذلك كانت لها غايات إسلامية وإنسانية وسياسية، ولو كان السبب في هذه الزيجات يعود إلى الشهوة حسبما يدعيه أشخاص يضمرون نيات سيئة لما قضى النبي ﷺ مرحلة شبابه وقوته مع امرأة أرملة لها أولاد وتكبره بخمس عشرة سنة.

٤. ابن هشام، ١، ٢٠٩ ـ ٢١٤؛ عبد الرزاق، المصنف، ٥، ٣١٩.

٥. ابن هشام، ١، ١٩١؛ ابن سعد، ١، ١٢١.



٢. فترة النبوة

وأخيراً لَمَّا وصل إلى الأربعين من عمره، أكرمه تعالى بالنبوة بأمر:

﴿**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ**﴾ (العلق، ١)

عن ابن عباس ﷺ قَالَ: «لمّا نزلتِ: ﴿**وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ**﴾ (الشعراء، ٢١٤)، صَعد النَّبِيُّ ﷺ على الصفا، فَجعل يُنادي:

"**يَا بَنِي فِهْرٍ، يَا بَنِي عَدِيّ**" -لِبُطون قُريش- حتى اجتمعوا فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً لينظر ما هو، فجاء أبو لهب وقريش، فقال:

"**أَرَأَيْتَكُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا بِالوَادِي تُرِيدُ أَنْ تُغِيرَ عَلَيْكُمْ، أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ؟**"

قالوا: «نعم، ما جرّبنا عليك إلاّ صدقاً»، قَالَ:

"**فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ**"

فقال أبو لهب: «تبًّا لك سائر اليوم، ألهذا جمعتنا؟» فنزلت:

﴿**تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ...**﴾» (سورةالمسد) (البخاري، التفسير، ٢٦/ ٢/ ٤٧٧٠؛ أحمد، مسند، ١، ١٥٩، ١١١)

ومنذ ذلك الوقت والرسول ﷺ لم يتوانَ ولم يتراجع عن الدعوة إلى الحق ولو للحظة على الرغم من الأذى والقسوة التي



قوبل بها من قومه. فكان يقصد الأبواب واحداً تلو الآخر، ويزور قوافل الحجاج ويطوف على الأسواق. ويدعو الناس إلى الهداية كلما سنحت له الفرصة، لا يعرف كللاً ولا مللاً، فكان يُخبر بالحقائق نفسها مراراً وتكراراً حتى الذين عادوه أشد العداوة، فيقول ﷺ: ﴿**قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ**﴾ (ص، ٨٦) موضحاً أنه يبلّغ ما كلفه الله تعالى به ابتغاء وجهه تعالى، وأما الكافرون فكانوا لا يفتؤون يطالبونه بالمعجزات، يقول تعالى:

﴿...**قُلْ سُبْحَانَ رَبِي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرَاً رَسُوْلَاً. وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرَاً رَسُوْلَاً. قُلْ لُوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُوْنَ مُطْمَئِنِّيْنَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِنَ السَّمَاءِ مَلَكَاً رَسُوْلَاً**﴾ (الإسراء، ٩٣ ـ ٩٥)

كان النبي ﷺ أمّيّاً، لا يعرف القراءةَ والكتابة كالكثير من الناس آنذاك، وبالتالي فمحال أن يكون قد أخذ ما يحدث به من أي كتاب أو عن أي أحد. ومبادرة رجل أمّي بعد بلوغه الأربعين من عمره فجأة بإعطاء معلومات غاية في الأهمية بأسلوب عال من البلاغة والفصاحة لا يمكن حدوثه إلا عن طريق الوحي السماوي. وقد كان جميع أعداءه ﷺ يعلمون هذا ويقبلون به، يقول الحق تعالى في القرآن الكريم:



﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو قَبْلَهُ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِيْنِكَ إِذاً لَارْتَابَ الْمُبْطِلُوْنَ﴾ (العنكبوت، ٤٨)

كان المشركون على معرفة بأخلاق النبي ﷺ وموقنين بقلوبهم أنّه لا يقول إلاّ الصّدق، إلاّ أنّهم لم يرغبوا بالتخلي عن بعض المنافع الدنيوية والشهوات النفسية التي حصّلوها من غير وجهها المسموح به. وهكذا فقد مرَّ النبي ﷺ ذات يوم بأبي جهل وأصحابه من ألدّ الأعداء، فقالوا:

«يا محمّد إنّا واللَّهِ ما نكذّبك، وإنك عندنا الصادق، ولكنْ نُكذّب ما جئْتَ بهِ» فنزلتْ:

﴿فَإِنَّهُمْ لَايُكَذِّبُونَكَ ولَكِنَّ الظَّالِمِيْنَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُوْنَ﴾»

(الأنعام، ٣٣) (الواحدي، أسباب نزول القرآن، ص ٢١٩؛ الترمذي، التفسير، ٦/ ٣٠٦٤)

فالتقى الأخنس وأبو جهل، فخلا الأخنس بأبي جهل، فقال:

«يا أبا الحكم، أخبرني عن محمد، أصادق هو أم كاذب؟ فإنه ليس ههنا من قريش أحد غيري وغيرك يسمع كلامنا!»

فقال أبو جهل:

«وَيْحك، والله إن محمدًا لصادق، وما كذب محمّد قط، ولكن إذا ذهب بنو قُصَيٍّ باللواء والحجابة والسقاية والنبوة، فماذا يكون لسائر قريش؟» (الطبري، جامع البيان، ١١، ٣٣٣، الأنعام، ٣٣)



كان الحارث بن عامر بن نوْفل يكذب النبي ﷺ فِي الْعلانية، وإذا خلا مع أهْل بيته، قال: «ما محمّد من أهل الكذب، ولا أحسبه إلّا صادقًا» (الواحدي، أسباب نزول القرآن، ص ٢١٩)

ولقد حاول المشركون جاهدين جعل النبي صلى لله عليه وسلم يتخلى عن دعوته، فكلموا عمه أبا طالب الذي يحبّه كثيراً، وعرضوا عليه أموراً يغرونه بها كالملك والمال والزواج بأجمل بناتهم حتى قالوا: «نحن مستعدون لفعل كل ما تطلبه منا»، فرد عليهم النبي ﷺ بجواب غاية في الوضوح والدقة:

"ما أدري ما تقولون، ما جئتكم بما جئتكم به لطلب أموالكم، ولا الشرف فيكم، ولا الملك عليكم ، ولكن الله بعثني إليكم رسولاً وأنزل عليَّ كتاباً، وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً فبلغتكم رسالة ربّي، ونصحت لكم فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوا عليَّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم" أو كما قال رسول اللَّهِ ﷺ. (سيرة ابن اسحاق، ص: ١٩٨؛ ابن كثير، البداية، ٣، ٩٩ – ١٠٠)

ولَمّا لم يتمكنوا من تسوية الأمر بينهم وبينه ﷺ لجؤوا إلى أعمال الترهيب، فزادوا من حدة الأذى والتعذيب للمسلمين يوماً بعد يوم، فهاجر بعض المسلمين إلى بلاد الحبشة التي يحكمها ملك عادل آنذاك.



٣. المقاطعة ورحلة الطائف

لقد قاطع المشركون المسلمين وكل من يقوم بحمايتهم من بني هاشم حيث منعوا جميع أنواع التبادل معهم كما قطعوا المعاملات المدنية كالزواج وسائر العلاقات البشرية، وكتبوا ذلك في وثيقة علّقوها على جدار الكعبة، واستمرت هذه المقاطعة والحظر بأشد أحوالها ثلاث سنوات، عانى فيها المسلمون أشد البلاء والجوع حتى أن الجوع بلغ منهم حدّاً جعلهم يأكلون لحاء الشجر وأوراقها، وكانت تسمع أصوات بكاء أطفالهم من بعيد، يقول سعد بن أبي وقاص:

"لقد جُعْت، حتّى إنّي وطئْت ذات ليلة على شيْءٍ رطْبٍ فَوضعْته في فَمي وبلعْته، وما أدْري ما هو إلى الآن» (السهيلي، الروض الأنوف، بيروت، ٢٠٠٠، ٣، ٢١٦)

وأخيراً وصلت مقاطعة بني هاشم إلى نهايتها وفي تلك الأيام توفي كل من عم وزوجة النبي ﷺ؛ أبو طالب وخديجة، وبلغت المهاجمات المعادية إلى حدّ العنف لدرجة كادت تزيد عن طاقة النبي الأكرم ﷺ، فأخذ زيد بن حارثة وقصد مدينة الطائف والتي تبعد عن مكة ١٦٠ كلم، وبقي في هذه المدينة التي له فيها أقرباء عشرة أيام، قاموا هم أيضاً بالسخرية منه في بادئ الأمر ثم أعقبوا سخريتهم بالإهانة والاستحقار، ثم بعثوا سفهاءهم



وعبيدهم على طرفي الطريق الذي يسلكه ﷺ يهزؤون به ويرمونه بالحجارة، فأدموه ولكن منبع الرحمة ونبي الرحمة ﷺ حتى وهو في شدة الضيق والهم والحزن الذي أصابه من هذه المعاملة السيئة لم يَدْعُ عليهم بما يجرّ عليهم عذاباً وإنما التجأ إلى الله تعالى خوفاً من أن يكون قد قصّر في الوظيفة الموكلة إليه من الله تعالى متضرعاً إليه:

"اللَّهمّ إلَيْكَ أَشْكُو ضَعْفَ قُوَّتِي، وَقِلَّةَ حِيلَتِي، وَهَوَانِي عَلَى النَّاسِ، يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ، أَنْتَ رَبُّ الْمُسْتَضْعَفِينَ، وَأَنْتَ رَبِّي، إلَى مَنْ تَكِلُنِي؟ إلَى بَعِيدٍ يَتَجَهَّمُنِي ؟ أَمْ إلَى عَدُوٍّ مَلَّكْتَهُ أَمْرِي؟ إنْ لَمْ يَكُنْ بِكَ عَلَيَّ غَضَبٌ فَلَا أُبَالِي، وَلَكِنَّ عَافِيَتَكَ هِيَ أَوْسَعُ لِي، أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِكَ الَّذِي أَشْرَقَتْ لَهُ الظُّلُمَاتُ ، وَصَلُحَ عَلَيْهِ أَمْرُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ مِنْ أَنْ تُنْزِلَ بِي غَضَبَكَ، أَوْ يَحِلَّ عَلَيَّ سُخْطُكَ، لَكَ الْعُتْبَى حَتَّى تَرْضَى، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إلَّا بِكَ" (ابن هشام، ٢، ٢٩ – ٣٠؛ الهيثمي، ٦، ٣٥)

لقد كانت غاية النبي ﷺ إرضاء الله تعالى وتأدية ما كُلِّف به على أتم وجه، فلم يكن ما يتعرض له في سبيل ذلك من الأذى البالغ في الشدة والمصاعب يهمه أو يثنيه.



أَنَّ عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت لِلنَّبِيِّ ﷺ:

«هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد، قال:

"لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكِ مَا لَقِيتُ، وَكَانَ أَشَدَّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ العَقَبَةِ، إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِ يَالِيلَ بْنِ عَبْدِ كُلَالٍ، فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَى مَا أَرَدْتُ، فَانْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِي، فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلَّا وَأَنَا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ فَرَفَعْتُ رَأْسِي، فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي، فَنَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جِبْرِيلُ، فَنَادَانِي فَقَالَ:

«إِنَّ اللَّهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ»، فَنَادَانِي مَلَكُ الجِبَالِ فَسَلَّمَ عَلَيَّ، ثُمَّ قَالَ: «يَا مُحَمَّدُ، فَقَالَ، ذَلِكَ فِيمَا شِئْتَ، إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمُ الأَخْشَبَيْنِ؟» فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:

"بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ، لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا"» (البخاري، بديع الخلق، ٧/ ٣٢٣١، مسلم، الجهاد، ١١١)

وقد أسلم تلك السنة مجموعة من الناس كانوا قد أتوا من المدينة، وبدأوا بالدعوة إلى الإسلام في المدينة، وطلبوا من النبي ﷺ أن يبعث إليهم بمعلم، فأوكل ذلك إلى مصعب بن عمير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،



فلم يبق بيت في المدينة لم يدخل إليه الإسلام بجهوده ﵁. ثم وعد المسلمون النبي ﷺ بأنهم سيقفون معه داعين إياه إلى المدينة.

٤. الهجرة وفترة المدينة

لقد أمر رسول الله ﷺ أصحابه بالهجرة إلى المدينة المنورة سراً بعدما بلغ تعذيب المشركين للمسلمين حداً يفوق الاحتمال. فلجأ المشركون الذين أصبحوا على علم بالأمر إلى تدبير خطة لقتل النبي ﷺ إذ أنه بقي وحيداً، وكانت خطتهم أن يأتي من كل قبيلة شاب ويقتحمون عليه بيته في وقت واحد، وعندها إن طالب أقرباؤه بأي حق سيلقون القبائل جميعها في مواجهتهم. وفي تلك الأثناء كان الحق تعالى قد أمر رسوله أيضاً بالهجرة. فدعا النبي ﷺ علياً ووكل إليه تأدية الأمانات التي عليه إلى أهلها، إذ أنه لم يكن في مكة أحد يملك شيئاً قيماً إلا ويودعه إياه عليه الصلاة والسلام لعلمهم بأمانته وصدقه.

لقد أحاط المشركون تلك الليلة بداره عليه الصلاة والسلام، ولكنه لم تظهر من النبي ﷺ البالغ توكله على الله تعالى وخضوعه له أقصى الحدود أية علامات تردد أو قلق أو اضطراب. فأخذ حفنة من التراب ونثرها على المشركين ومرّ من بينهم وهو يتلو الآيات الأولى لسورة يس، ولم يره أحد منهم.



وبهذا يكون النبي ﷺ قد هاجر إلى المدينة بعد كدٍّ وجهدٍ في الإرشاد والدعوة دام لثلاث عشرة سنة. وآخى بين مسلمي المدينة من الأنصار والمهاجرين الآتين إلى المدينة من مكة، فكان الأنصاري يقول لأخيه من المهاجرين:

«أقاسمك مالي نصفين وأزوجك»

وبالمقابل يجيب المهاجر الذي أضحى قلبه ممتلئاً بالقناعة:

«بارك الله لك في أهلك ومالك، دُلُّوني على السوق» (البخاري، البيوع، ١)

وقد جهزّ النبيّ ﷺ قانوناً ينظم العلاقات والمسؤوليات بين المهاجرين والأنصار واليهود الذين يسكنون في المدينة ومسؤولياتهم تجاه الدولة الإسلامية. وهذا المتن الذي سمي بوثيقة المدينة كان أول قانون مكتوب في تاريخ العالم.[٦]

جرت بعض المعارك بسبب العداوة البينة التي يظهرها المشركين للمسلمين ونقض العهد المتواصل من اليهود المجاورين. فرسول الله المبعوث رحمة للعالمين اتبع في الحملات العسكرية سياسة الرحمة، فإلى جانب تمكنه من ضم شبه الجزيرة العربية كلها تحت إمرته في مدة قصيرة، حقنت سياسته الكثير من دماء الطرفين. فقد رجح حل المشاكل على العموم وأساساً عن طريق الصلح.

٦. أ. د. م. حميد الله، The First Written Constitution in the World ، لندن، 1975.



لقد شارك النبي ﷺ في ٢٩ غزوة، ١٦ منها لم يحدث فيها أي قتال على الوجه الفعلي، بل تم الأمر باتفاق وصلح بين الطرفين، وأما ١٣ الباقية فقد أجبروا على خوض قتال فيها، وقد استشهد في مجموع هذه الغزوات ١٤٠ من المسلمين، وأما المشركين فمات منهم ٣٣٥ شخصاً.[٧]

إن الهدف الرئيسي للمعارك: لا يكمن في قتل الناس والحصول على الغنائم والفساد في الأرض ونيل المنافع الذاتية واكتساب المصالح المادية أوالانتقام، بل الغاية رفع الظلم، وتقديم حرية العقيدة، وإيصال الناس إلى بر الهداية، وإزالة جميع أنواع الظلم.

٥. أمثلة من أخلاقه التي لا نظير لها

عطفه ورحمته

كان النبي ﷺ ممتلئاً بالرحمة والشفقة اللتان تسعان المخلوقات كلها، يقول الله تعالى:

﴿لَقَدْ جاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ ما عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ﴾ (التوبة، ١٢٨)

٧. انظر: أ. د. م. حميد الله، غزوات سيدنا النبي ﷺ، اسطنبول، ١٩٩١.



فالقرآن الكريم يشهد على عطفه ورحمته بالبشر، مع أن عطفه على المؤمنين أكثر، ويوضح القرآن أن أصحابه عليه الصلاة والسلام كانوا يرأفون بالخلق جميعاً حتى أعداءهم، يقول تعالى:

﴿ها أَنْتُمْ أُولاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتابِ كُلِّهِ وَإِذا لَقُوكُمْ قالُوا آمَنَّا وَإِذا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ﴾. (آل عمران ١١٩)

كان النبي ﷺ ذا رحمة مطلقة تشمل حتى الحيوانات والنباتات فضلاً عن البشر، وحين نقض المشركون العهد وخانوا المسلمين مرجحين بذلك القتال كان النبي ﷺ قد شد رحاله بجيشه البالغ ١٠ ٠٠٠ متوجهاً إلى مكة، لمّا سار رسول الله ﷺ من العرج، فكان فيما بين العرج والطلوب، نَظر إلى كلبة تهر على أولادها وهم حولها يرضعونها، فأمر رجلاً من أصحابه يُقال له جعيل بن سراقة أن يقوم حذاءها، لا يعرض لها أحد من الجيش ولأولادها.. (الواقدي، المغازي، ٢، ٨٠٤)

دخل النبي ﷺ حائطاً لرجل الأنصار فإذا جملٌ، فلما رأى النبي ﷺ حنَّ وذرفت عيناه، فأتاه النبي فمسح ذفراه فسكت، فقال:

"مَنْ رَبُّ هَذَا الْجَمَلِ، لِمَنْ هَذَا الْجَمَلُ؟"

فجاء فتى من الأنصار فقال: «لي يا رسول اللَّهِ» فَقَالَ:



"أَفَلَا تَتَّقِي اللَّهَ فِي هَذِهِ الْبَهِيمَةِ الَّتِي مَلَّكَكَ اللَّهُ إِيَّاهَا؟ فَإِنَّهُ شَكَا إِلَيَّ أَنَّكَ تُجِيعُهُ وَتُدْئِبُهُ" (أبو داود، الجهاد، ٤٤/ ٢٥٤٩)

مر رسول الله ﷺ ببعير قد لحق ظهره ببطنه قال:

"اتَّقُوا اللَّهَ فِي هَذِهِ الْبَهَائِمِ الْمُعْجَمَةِ، فَارْكَبُوهَا صَالِحَةً، وَكُلُوهَا صَالِحَةً" (أبو داود، الجهاد، ٤٤/ ٢٥٤٨)

وعن سوادة بن الربيع، قال:

«أتيت النَّبِيَّ فسألته فأمر لي بذود، ثم قال لي

"إِذَا رَجَعْتَ إِلَى بَيْتِكَ فَمُرْهُمْ فَلْيُحْسِنُوا غِذَاءَ رِبَاعِهِمْ، وَمُرْهُمْ فَلْيُقَلِّمُوا أَظْفَارَهُمْ، لَا يَعْبِطُوا بِهَا ضُرُوعَ مَوَاشِيهِمْ إِذَا حَلَبُوا"»[8]

(أحمد، مسند، ٣، ٤٨٤/ ١٥٩٦١؛ الهيثمي، ٥، ١٦٨، ٢٥٩؛ ٨، ١٩٦)

مَرَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِرَجُلٍ يَحْلِبُ شَاةً فَقَالَ:

"أَيْ فُلَانُ، إِذَا حَلَبْتَ فَأَبْقِ لِوَلَدِهَا فَإِنَّهَا مِنْ أَبَرِّ الدَّوَابِّ" (الهيثمي، ٨، ١٩٦)

---

٨. قوله: بِذَوْدٍ، أي: بِنُوق. قوله: «غذاء رباعهم». الرباع، بكسر الراء: جمع رَبْع، وهو ما ولد من الإبل في الربيع. وقيل: ما ولد في أول النتاج، وإحسان غذائها، أي: لا يُسْتَقْصى حلب أُمهاتِها إبقاءً عليها. قوله: «لا يعبطوا». من عبط الضرع كضرب- بالعين المهملة- إذا أدماه.



إنّ أبا الدَّرْدَاء ﵁ مرَّ بقوْم قد أناخوا بعيرًا فحمَّلوه غرارتين ثمّ علوْه بأخْرَى فلمْ يستطع الْبعير أنْ ينهض فألْقاها عنه أبو الدَّرْدَاء ﵁ ثمَّ أنهضهُ فقال:

«إنْ غفر اللَّهُ لكم مَا تأتون إلى الْبهائم لَيغْفرنَّ عظيمًا إنِّي سمعتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يقول:

"إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُوصِيكُمْ بِهَذِهِ الْعُجْمِ خَيْرًا أَنْ تَنْزِلُوا بِهَا مَنَازِلَهَا فَإِذَا أَصَابَتْكُمْ سَنَةٌ أَنْ تَنْحُوا عَنْهَا نِقِيهَا"» (ابن حجر، المطالب العالية، ٢، ٢٢٦/ ١٩٧٨)

عفوه وتسامحه

لقد كان النبي ﷺ عندما يقدر على محاسبة من كان قد تعرّض له بالكثير من الأذى يصفح عنه ويسامحه، بل إنه لم يكن ليمنن عليهم ما فعله حتى ولو بعبارة أو إشارة، لأنّ رسول اللَّه ﷺ لم يكن يريد لأحد أن يصاب بالأذى من المسلمين وغيرهم وإنّما يتعامل مع الجميع بأدب عظيم وأخلاق سامية، وحين فتح مكة من دون إراقة دماء كان الذين عادوه بكل أنواع العداوة طيلة ٢١ سنة ماكثين ينتظرون حكمه، فسألهم:

"مَا تُرَوْنَ أَنِّي فَاعِلٌ فِيكُمْ؟"

قالوا: «خيراً، أخ كريم وابن أخ كريم»



فقال ﷺ: "أقول كما قال أخي يوسف: ﴿لا تَثْرِيبَ عَلَيكُمُ اليَومَ يَغفِرُ اللهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ اذْهَبُوا فَأَنْتُمْ الطُّلَقَاءُ"
(انظر: ابن هشام، ٤، ٣٢؛ الواقدي، ٢، ٨٣٥؛ ابن سعد، ٢، ١٤٢ – ١٤٣)

وأطلق على ذلك اليوم اسم يوم المرحمة ...[٩]

وقد عفا عليه الصلاة والسلام عن وحشي قاتل عمه حمزة يوم أحد وهند التي مضغت كبده،[١٠] واستفاد من هذا العفو هَبّار بْن الْأَسْوَدِ وهو المتسبب في وفاة ابنته عليه الصلاة والسلام بإيقاعها عن ظهر الدابة، حتى وصل به التسامح إلى حد منع فيه من استحقار خبار أو تعريضه لما فعل فيما مضى.[١١]

عن عبد اللّٰه بن الزبير قال: لما كان يوم فتح مكة هرب عكرمة بن أبي جهل وكانت امرأته أم حكيم بنت الحارث بن هشام امرأة عاقلة أسلمت، ثم سألت رسول اللّٰه ﷺ الأمان لزوجها فأمرها برده، فخرجت في طلبه وقالت له:

جئتك من عند أوصل الناس وأبر الناس وخير الناس وقد استأمنت لك فأمنك، فرجع معها، فلما دنا من مكة، قال رسول رسول اللّٰه ﷺ لأصحابه:

---

٩. الواقدي، ٢، ٨٢٢؛ علي المتقي، الكنز، رقم: ٣٠١٧٣.

١٠. البخاري، المغازي، ٢٣؛ مسلم، الأقضية، ٩.

١١. الواقدي، ٢، ٨٥٧ ـ ٨٥٨.



"يَأْتِيَكُمْ عِكْرِمَةُ بْنُ أَبِي جَهْلٍ مُؤْمِنًا مُهَاجِرًا، فَلَا تَسُبُّوا أَبَاهُ، فَإِنَّ سَبَّ الْمَيِّتِ يُؤْذِي الْحَيَّ، وَلَا يَبْلُغُ الْمَيِّتَ"

فلما بلغ باب رسول اللَّه ﷺ استبشر ووثب له رسول اللَّه ﷺ قائما على رجليه فرحا بقدومهِ. (الحاكم، ٣، ٢٦٩/ ٥٠٥٥)

عن عكرمة بن أبي جهل قال: قال لي النَّبِيُّ ﷺ يوم جئت مهاجراً:

"مَرْحَبًا بِالرَّاكِبِ الْمُهَاجِرِ، مَرْحَبًا بِالرَّاكِبِ الْمُهَاجِرِ، مَرْحَبًا بِالرَّاكِبِ الْمُهَاجِرِ"

فَقُلْتُ: «واللَّه يا رسول اللَّه، لا أدع نفقة أنفقتها إلا أنفقت مثلها في سبيل الله ﷻ» (الحاكم، ٣، ٢٧١/ ٥٠٥٩؛ انظروا: الواقدي، ٢، ٨٥١ – ٨٥٣؛ الترمذي، الاستئذان، ٣٤/ ٢٧٣٥)

وقد عفا النَّبِيّ ﷺ عن كثير من أمثال هؤلاء.

تواضعه

كان النبي ﷺ إنساناً متواضعاً إلى أبعد الحدود، عن أبي مسعود، أنَّ رجلاً كلم النَّبِيُّ ﷺ يوم الفتح، فأخذته الرعدة، فَقَالَ لَهُ:

"هَوِّنْ عَلَيْكَ، فَإِنِّي لَسْتُ بِمَلِكٍ، إِنَّمَا أَنَا ابْنُ امْرَأَةٍ تَأْكُلُ الْقَدِيدَ" (ابن ماجة، الأطعمة، ٣٠، الحاكم، ٣، ٥٠/ ٤٣٦٦)



كان عليه الصلاة والسلام لا يسمح للناس بالمغالاة فيه، يقول عليه الصلاة والسلام:

"لاَ تُطْرُونِي، كَمَا أَطْرَت النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ، فَقُولُوا: عَبْدُ اللَّهِ، وَرَسُولُهُ" (البخاري، الأنبياء، ٤٨)

فهو الذي حفظ أمته من خطر تأليه البشر كما حدث في أقوام سابقة، ولذلك أضافَ كلمة «عبده» عند التصديق بنبوته.

ومن قبيل هذا أيضاً قوله عليه الصلاة والسلام:

"لَا تَرْفَعُونِي فَوْقَ حَقِّي، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى اتَّخَذَنِي عَبْدًا قَبْلَ أَنْ يَتَّخِذَنِي رَسُولا" (الهيثمي، ٩، ٢١)

كان عليه الصلاة والسلام -كما أخبر صحابته رضوان الله عليهم- يعود المرضى ويحضر الجنازة ويلبي دعوة العبيد، ويردف الناس على بعيره، ويأكل طعامه بوضعه على الأرض، ويلبس الخشن من اللباس، ويحلب الشاة، ويكرم الضيوف باعتناءه بهم وخدمته لهم وإكرامه إياهم، ولم يكن يتكبر ولا يبتعد عن المشي في حاجة أرملة أو فقير ومسكين حتى تُقضى حاجته.(١٢)

١٢. انظر: الترمذي، الجنائز، ٣٢ / ١٠١٧؛ ابن ماجه، الزهد، ١٦؛ النسائي، الجمعة، ٣١؛ الحاكم، المستدرك، ١، ١٢٩ / ٢٠٥؛ ٢، ٥٠٦ / ٣٧٣٤؛ ٤، ١٣٢ / ٧١٢٨؛ الهيثمي، ٩، ٢٠.



بساطته وزهده

عاش رسول اللَّه ﷺ حياة متواضعة وبسيطة إلى أبعد الحدود، نقلت أمنا عائشة رضي الله عنها: أُتِيَ رَسُولُ اللَّهِ بِقَدَحٍ فِيهِ لَبَنٌ وَعَسَلٌ، فَقَالَ:

"شَرْبَتَيْنِ فِي شَرْبَةٍ، وَأُدْمَيْنِ فِي قَدَحٍ، لَا حَاجَةَ لِي بِهِ، أَمَا إِنِّي لَا أَزْعُمُ أَنَّهُ حَرَامٌ، أَكْرَهُ أَنْ يَسْأَلَنِي اللَّهُ عَنْ فُضُولِ الدُّنْيَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، أَتَوَاضَعُ لِلَّهِ، فَمَنْ تَوَاضَعَ لِلَّهِ رَفَعَهُ اللَّهُ، وَمَنْ تَكَبَّرَ وَضَعَهُ اللَّهُ، وَمَنِ اقْتَصَدَ أَغْنَاهُ اللَّهُ، وَمَنْ أَكْثَرَ ذِكْرَ الْمَوْتِ أَحَبَّهُ اللَّهُ" (الهيثمي، ١٠، ٣٢٥)

وعن الشِّفَاءِ ابْنَةِ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنها قالت:

«جئت يوما حتى دخلت على النَّبِيّ ﷺ فسألته وشكوت إليه، فجعل يعتذر إلي وجعلت ألومه» ، قالت: ثم حانت الصلاة الأولى فدخلت بيت ابنتي وهي عند شرحبيل ابن حسنة، فوجدت زوجها في البيت فجعلت ألومه وقلت: حضرت الصلاة وأنت هاهنا. فقال: يا عمة لا تلوميني كان لي ثوبان استعار أحدهما النَّبِيّ ﷺ، فقلت: بأبي وأمي أنا ألومه وهذا شأنه، فقال شرحبيل: إنما كان أحدهما درعا فرقعناه» (الحاكم، ٤، ٥٨/ ٦٨٩٢)

وتقول السيدة عائشة رضي الله عنها:

«إن النبي ﷺ لم يجتمع عنده غداء ولا عشاء من خبز ولحم إلا على ضفف» (الترمذي، الشمائل المحمدية، ص ٣٦٥)



وفي حديث آخر عن عائشة رضي الله عنها:

«ما رَفع رسول الله ﷺ قطّ غداء لعشاء ولا عشاء قطّ لغداء ولا اتخذ من شيء زوجين، لا قميصين، ولا ردائين، ولا إزارين، ولا من النعال، ولا رئي قطّ فارغا في بيته إما يخصف نعلاً لرجل مسكين أو يخيط ثوباً لأرملة» (ابن الجوزي، صفة الصفوة، القاهرة، ١٤٢١، ١، ٧٨)

نظافته ولياقته

لقد كان النبي ﷺ الذي يأمر بجعل الثياب نظيفة والاهتمام بترتيب الشعر واللحية ولا يحبذ الشعر الأشعث واللحية غير الممشطة. فقد كان عليه الصلاة والسلام غاية في النظافة والجمال، يقول أبو هريرة رضي الله عنه: «ما رأيت شيئاً أحسن من رسول اللّه ﷺ، كأن الشمس تجري في وجهه...» (أحمد، ٢، ٣٨٠، ٣٥٠/ ٨٩٤٣)

لم يكن عليه الصلاة والسلام يتفوه بأية كلمة نابية مما يستخدمه الناس، ويقول ﷺ:

"مَا شَيْءٌ أَثْقَلُ فِي مِيزَانِ الْمُؤْمِنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ خُلُقٍ حَسَنٍ، وَإِنَّ اللَّهَ لَيُبْغِضُ الْفَاحِشَ الْبَذِيءَ" (الترمذي، البر، ٦٢/ ٢٠٠٢)

عن عائشة رضي الله عنها، قالت: «كان النبي ﷺ إذا بلغه عن الرجل الشيء لم يقل: ما بال فلان يقول؟ ولكن يقول: ما بال أقوام يقولون كذا وكذا؟» (أبو داود، الأدب، ٥/ ٤٧٨٨)



اهتمامه بالنساء وإعطاؤهن قيمة كبيرة

وُجدت حقوق خاصة بالنساء وفق ما أمر اللَّه تعالى ورسوله، فأضحت المرأة مثال على العفة والفضيلة في المجتمع، ولاقت مؤسسة الأمومة الشرف، وقد حصلت المرأة على المرتبة التي تستحقها بقوله ﷺ:

«**الجنة تحت أقدام الأمهات**»[١٣] لم يضرب النبي ﷺ أياً من زوجاته طيلة حياته ولا أحداً غيرهن.[١٤] لأن اللَّه تعالى يقول:

﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ (النساء، ١٩)

كرمه وجوده

كان ﷺ في غاية الكرم، ما سُئل رسول اللَّه ﷺ على الإسلام شيئًا إلّا أعطاه، عن أنس رضي الله عنه، قال: «أنّ رجلاً سأل النَّبي ﷺ غنماً بين جبلين، فأعطاه إياه، فأتى قومه فقال::

«أي قوم أسلموا، فواللَّه إنّ محمداً ليعطي عطاء ما يخاف الفقر» (مسلم، الفضائل، ٥٧ ـ ٥٨؛ أحمد، ٣، ١٠٧ ـ ١٠٨؛ الواقدي، ٢، ٨٥٤ ـ ٨٥٥)

---

١٣. انظر: النسائي، الجهاد، ٦؛ أحمد، ٣، ٤٢٩؛ السيوطي، ١، ١٢٥.

١٤. انظر: ابن ماجة، النكاح، ٥١.



والخلاصة أنه لا يمكن حصر أخلاقه الحسنة عليه الصلاة والسلام بالتحدث عنها، يقول ابن حزم:

«من أراد خير الآخرة، وحكمة الدنيا، وعدل السيرة والاحتواء على محاسن الأخلاق كلها، واستحقاق الفضائل بأسرها؛ فليقتد بمحمد رسول اللَّه ﷺ، وليستعمل أخلاقه وسيره ما أمكنه، أعاننا اللَّه على الإتساء به بمنه»(١٥)

٦. وفاته عليه الصلاة والسلام

توفي عليه الصلاة والسلام يوم الاثنين الموافق ل١٢ من ربيع الأول من السنة الهجرية الحادية عشرة، والموافق للثامن من حزيران سنة ٦٣٢ ميلادية، ليجازيه الله تعالى عنا بكل ما هو يستحقه وليكرمنا بشفاعته ﷺ. آمين.

جزاك اللَّه عنا خير ما جزى نبياً عن أمته.

لقد أرسله الحقّ تعالى مصدّقاً لِمَا قبله من الرسل، وليطهِّر ما لحق بالشرائع السابقة من تحريف وفساد على مرِّ الزمن،(١٦) ومتمِّماً ما كان ناقصاً من الدين، ورافعاً لأثقال الأوزار التي

١٥. ابن حزم، الأخلاق والسير، بيروت، ١٣٩٩، ص ٢٤.

١٦. البقرة، ٧٥، ١٠١؛ آل عمران، ٨١؛ الصف، ٦؛ النساء، ٤٦؛ المائدة، ١٣، ١٤.



استحقها من سبق من الأمم، ورحمة للعالمين،[١٧] ونحن بالاستماع إلى خطبة الوداع نكون شاهدين على تأديته عليه الصلاة والسلام ما كلف به على أتم وجه.

لقد جعل عليه الصلاة والسلام الإسلام بإذنه تعالى مهيمناً على شبه الجزيرة العربية كلها من عُمان إلى البحر الأحمر ومن سوريا إلى اليمن، وبهذا كانت الجزيرة قد وحدت لأول مرة في تاريخها، يقول لامارتين في كتابه المسمى: L'Histoire de la Turquie:

«من يجرؤ على قياس أعظم شخصيات العصر الحديث بمحمد ﷺ، إن كان عظم الغاية وضآلة الوسائل وروعة النتيجة مقاييس ثلاثة عظيمة».

إن النبي محمد ﷺ فيلسوف الفكر، وخطيبه ورسوله وواضعه ومقاتله وفاتحه، هو مؤسس دين يخلو من المعتقدات المخالفة للعقل ومن الأصنام وهو صاحب الدول العشرين الدنيوية والدولة الأخروية، ثم إننا نسأل بجميع المقاييس المستخدمة في إثبات عظمة الإنسان:

"أَمِنْ أحد أعظم منه؟"

١٧. المائدة، ٣؛ البقرة، ٢٨٦؛ الأعراف، ١٥٧؛ الأنبياء، ١٠٤.



٧. الحبُّ الكبير الذي يُكَنُّ له

كان صحابة النبي ﷺ يحبونه حباً شديداً، حيث يخاطبونه على الدوام بـ "فداك أبي وأمي ونفسي وكل ما أملك يا رسول الله"، وكانوا يضحون بأنفسهم كي لا يصاب عليه الصلاة والسلام بأي أذى ولو شوكة تصيب قدمه، لقد استشهد زيد بن الدثنة وحبيب رضي الله عنهما تحت التعذيب الذي تعرضا له من قبل المشركين إذ وقعا في أسرهم، ويقال لكل منهما قبل استشهادهما:

«فتحبّ أنّ محمّدًا في مكانك وأنت جالسٌ في بيتك؟»

قال: «واللّه ما أُحبّ أن يُشاك محمّدٌ بشوكةٍ وأنا جالسٌ في بيتي»

ويعقب أبو سفيان الذي تلفه الدهشة والحيرة من هذه الصورة التي لا مثيل لها في المحبة فيقول:

«لا، ما رأينا أصحاب رجُلٍ قط أشدّ له حُبّا مِنْ أصْحابِ محَمّدٍ بِمُحَمّد» (الواقدي، ١، ٣٦٠ ـ ٣٦٢؛ ابن سعد، ٢، ٥٦)

وخرجت أم سعد بن معاذ تعدو نحو رسول اللّه ﷺ ورسول اللّه ﷺ واقف على فرسه، (عائد من غزوة أحد) وسعد بن معاذ آخذ بعنان فرسه، فقال سعد رضي الله عنه: يا رسول اللّه، أمي، فقال ﷺ: "**مرحبًا بها**"، فدنت حتى تأملت رسول اللّه ﷺ فقالت:



«أمّا إذا رأيتك سالماً فقد أشوت[18] المصيبة»، فعزاها رسول اللَّه بعمرو بن معاذ ابنها، ثم قال:

"يا أم سعد، أبشري وبشري أهليهم أن قتلاهم قد ترافقوا في الجنة جميعاً، وقد شفعوا في أهليهم"

قال: «رضينا يا رسول اللَّه، ومن يبكي عليهم بعد هذا؟!"

ثم قالت: «يا رسول الله ادعُ لمن خلفوا منهم»،

فقال ﷺ:"اللّهم أذهب حزن قلوبهم واجبر مصيبتهم وأحسن الخلف على من خلفوا" ثم قال لسعد بن معاذ: "خل يا أبا عمرو الدابة"، فخلى الفرس، وتبعه الناس. فقال رسول اللَّه له: "يا أبا عمرو، إن الجراح في أهل دارك فاشية وليس فيهم مجروح إلاّ يأتي يوم القيامة جرحه كأغزر ما كان، اللون لون دم والريح ريح المسك، فمن كان مجروحاً فليقر في داره وليداو جرحه، ولا يبلغ معي بيتي، عزمة مني!"

فنادى فيهم سعد: «عزمة رسول اللَّه، ألا يتبع رسول اللَّه جريح من بني عبد الأشهل!» فتخلف كل مجروح، وإن فيهم لثلاثين جريحاً، ولكن سعد بن معاذ مضى معه إلى بيته. (الواقدي، ، ٣١٥ - ٣١٦؛ الدِّيار بَكْري، تاريخ الخميس في أحوال أنفس النفيس، ١، ٤٤٤)

١٨. أصبحت صغيرة خفيفة. ويقال: رمى فأشوى إذا لم يصب المقتل.



لقد جاءت آخر قوافل المهاجرين إلى الحبشة أثناء غزوة خيبر إلى النبي ﷺ عن طريق البحر، ودخلت أسماء بنت عميس، وهي ممن قدم معنا، على حفصة زوج النبي ﷺ زائرة، وقد كانت هاجرت إلى النجاشي فيمن هاجر، فدخل عمر على حفصة، وأسماء عندها، فقال عمر حين رأى أسماء: من هذه؟ قالت: أسماء بنت عميس، قال عمر: الحبشية هذه البحرية هذه؟ قالت أسماء: نعم، قال: سبقناكم بالهجرة، فنحن أحق برسول اللَّه ﷺ منكم، فغضبت وقالت: «كلاَّ واللَّه، كنتم مع رسول اللَّه ﷺ يطعم جائعكم، ويعظ جاهلكم، وكنا في دار – أو في أرض – البعداء البغضاء بالحبشة، وذلك في اللَّه وفي رسوله ﷺ، وايم اللَّه لا أطعم طعاماً ولا أشرب شراباً، حتى أذكر ما قلت لرسول اللَّه ﷺ، ونحن كنا نؤذى ونخاف، وسأذكر ذلك للنبي ﷺ وأسأله، واللَّه لا أكذب ولا أزيغ، ولا أزيد عليه»

فلمَّا جاء النبي ﷺ قالت: يا نبي اللَّه إنَّ عمر قال: كذا وكذا؟

قال: "**فَمَا قُلْتِ لَهُ؟**"

قالت: قلت له: كذا وكذا، قال:

"**لَيْسَ بِأَحَقَّ بِي مِنْكُمْ، وَلَهُ وَلِأَصْحَابِهِ هِجْرَةٌ وَاحِدَةٌ، وَلَكُمْ أَنْتُمْ –أَهْلَ السَّفِينَةِ– هِجْرَتَانِ**"،



قَالَتْ: «فلقد رأيت أبا موسى وأصحاب السفينة يأتوني أرسالاً، يسألوني عن هذا الحديث، ما من الدنيا شيء هم به أفرح ولا أعظم في أنفسهم مما قال لهم النبي ﷺ، قال أبو بردة: قالت أسماء: فلقد رأيت أبا موسى وإنه ليستعيد هذا الحديث مني» (البخاري، المغازي، ٣٦/ ٤٢٣٠/ ٤٢٣١، مسلم، فضائل الصحابة، ١٦٩/ ٢٥٠٣)

فمحبة الصحابة البالغة هذه نلاحظها بوضوح في احترامهم وفي دقتهم الظاهرة أثناء قراءتهم الأحاديث وروايتهم لها، حيث كان يبلغ الخوف من أن يخطؤوا في رواية الأحاديث حداً ترتعد معه ركبهم وتصفر وجوههم، يقول عَمْرو بْن مَيْمُونٍ:

«ما أخطأني ابن مسعود عشية خميس إلاّ أتيته فيه، قال: فما سمعته يقول لشيء قط قال رسول اللّه ﷺ، فلما كان ذات عشية قال: قال رسول اللّه ﷺ، قال: فَنَكَسَ. قال: «فنظرت إليه، فهو قائم محللة، أزرار قميصه، قد اغرورقت عيناه، وانتفخت أوداجه» قال: أو دون ذلك، أو فوق ذلك، أو قريباً من ذلك، أو شبيهاً بذلك» (ابن ماجة، المقدمة، ٣؛ أحمد، ١، ٤٥٢)[١٩]

ويا لها من حال محبة تبعث إلى الاتعاظ ما بيّنه لنا أحد

١٩. وللاطلاع على الأمثلة الغنية التي تعبر عن المحبة العميقة الموجهة إلى رسولنا الكريم على مدى التاريخ انظر: خليل ابراهيم ملا خاطر، محبة النبي وطاعته بين الانسان والجماد، دار القلم العربي ١٩٩٦؛ عثمان نوري توب باش، مدنية الفضائل، ١، ٢٢٣ - ٢٦٥، http : //www . islamiyayinlar. net / content / view / ١٤٨ / ٨ /



تلامذة يامان دادا الذي كان أرثوذكسيا يعرف باسم ديامندي فيما سبق، إلا أنه غدا عاشق النبي المكتوي والمؤمن البكاء بعدما تعرف على مثنوية حضرة مولانا:

«ذات يوم فرغت الدروس، وخرجنا من المدرسة، فكنت متوجهاً وقت الظهيرة إلى منطقة تقسيم، وكان ثمة مسجد بالقرب من السفارة الألمانية، فنظرت وإذا أنا بيامان دادا، وهو مستند على جدار المسجد، وكأنه يلفظ أنفاسه الأخيرة، منهك، مجهداً، قد أحنى رأسه المائل إلى جهة اليمين، و أحنى رقبته وهو يبكي، فأسرعت راكضاً نحوه، وقلت :«لماذا تبكون يا أستاذي؟ أأصابكم أمر ما؟» فأجابني بصوت خافت ومرتجف :«لا يا بني، لا! إنما أفقد السيطرة على نفسي حين يخطر رسول الله ﷺ في بالي، وأعجز عن الوقوف على قدمي، فإما أن أستند إلى شيء ما وإما أن أجلس» (مصطفى أوزدمير، يامان دادا، إسطنبول ١٩٩٤، ص ١٩١ ـ ١٩٢)

٨. بعض من معجزاته ﷺ

ثمة الكثير من المعجزات التي جرت على يديه عليه الصلاة والسلام،[٢٠] ويأتي على رأس هذه المعجزات القرآن الكريم المتحدي جميع العصور فضلاً حياة النبي ﷺ الكريمة وأخلاقه

٢٠. البيهقي، دلائل النبوة؛ أبو نعيم، دلائل النبوة؛ السيوطي، الخصائص الكبرى.



السنية كما ذكرناه مختصراً آنفاً، وفي الحقيقة فإنه لم يقم أحد باعتراض معتبر على حياة النبي ﷺ المباركة وأخلاقه السامية، فعند البحث والتدقيق فيها يرى للعيان أنها معجزات عظيمة.

وفيما يلي بعض من معجزاته ﷺ عدا ما ذكرنا:

عندما طلب منه كفار مكة آية تدل على صدق دعوته، دعا ﷺ ربه تعالى فانشق القمر، ورؤيت هذه المعجزة من كل الأطراف، ولما انشق القمر نصفين رؤيَ نصفه من طرف جبل أبو قبيس والنصف الآخر من جبل قعيقعان. وقد سأل مشركو قريش القوافل الآتية من أماكن بعيدة خارج مكة أرأوا هذه الحادثة أم لا، وهم أقروا بأنهم شاهدوا انشقاقه.(٢١)

كان في مسجد النبي ﷺ جذع نخلة جاف يتكئ عليه أثناء الخطبة، وعندما كثر المسلمون احتيج إلى منبر ليقف عليه أثناء الخطبة، ولما صعد ﷺ إلى المنبر صَاحَت النّخلة صِياح الصّبيّ، ثمّ نزل النّبيُّ ﷺ فضمّه إليه، تَئِنُّ أنين الصّبيّ الّذي يُسكّن. قالَ:

"كَانَتْ تَبْكِي عَلَى مَا كَانَتْ تَسْمَعُ مِنَ الذِّكْرِ عِنْدَهَا"(٢٢)

٢١. القمر، ١ ـ ٣؛ البخاري، المناقب ٢٧، مناقب الأنصار ٣٨، التفسير ١/٥٤؛ مسلم، المنافقين، ٤٣، ٤٧، ٤٨؛ الترمذي، التفسير، ٥٤/ ٣٢٨٦؛ أحمد، ١، ٣٧٧، ٤١٣.

٢٢. انظر: البخاري، المناقب ٢٥، الجمعة ٢٦؛ الترمذي، الجمعة ١٠، المناقب ٦؛ النسائي، الجمعة، ١٧؛ ابن ماجة، إقامة الصلاة، ١٩٩؛ الدارمي، المقدمة ٦، الصلاة ٢٠٢؛ أحمد، ١، ٢٤٩، ٢٦٧، ٣٠٠، ٣١٥، ٣٦٣. تحتوي هذه المصادر الآنفة الذكر على الكثير من المعجزات.



لما قدم بأسرى بَدْرٍ إلى المدينة، قال رسول اللَّه ﷺ:

"افد نفسك يا عباس، وابني أخويك عقيل بن أبي طالب، ونوفل بن الحارث بن عبد المطلّب، وحليفك عقبة بن عمرو، فإنّك ذو مال"

فقال العباس: «يا رسول اللَّه، إنّي كنت مسلماً، ولكن القوم استكرهوني»، فقال ﷺ:

"اللَّه أعلم بإسلامك، إن يكن ما قلت حقّاً فإنّ اللَّه يجزيك به، وأمّا ظاهر أمرك فقد كان علينا، فافتد نفسك"

وقد كان رسول اللَّه ﷺ أخذ منه عشرين أوقية من ذهب أصابها معه حين أسر، فقال العباس: «يا رسول اللَّه احسبها لي من فدائي»، فقال ﷺ: "ذاك شيء أعطانا اللَّه منك"،

فقال: «يا رسول اللَّه، فإنّه ليس لي مال»، قال:

"فأين المال الذي وضعته بمكّة حين خرجت عند أم الفضل بنت الحارث، وليس معكما أحد، ثم قلت: إن أصبت في سفري هذا فللفضل كذا وكذا، ولعبد الله كذا وكذا، ولقثم كذا وكذا"

فقال العباس: «والذي بعثك بالحق يا رسول اللَّه، ما علم بهذا أحد غيري وغيرها، وإنّي لأعلم إنّك رسول اللَّه»، ثم فدى نفسه وابني أخويه وحليفه. (أحمد، ١، ٣٥٣؛ ابن سعد، ٤، ١٣-١٥)



عن عروة بن الزبير قال: جلس عمير بن وهب الجمحي مع صفوان بن أمية بعد مصاب أهل بدر من قريش -في الحجر- بيسير، وكان عمير بن وهب شيطانا من شياطين قريش، وممن كان يؤذي رسول اللَّه ﷺ وأصحابه، ويلقون منه عناء وهو بمكة، وكان ابنه وهب بن عمير في أسارى بدر.

فذكر أصحاب القليب ومصابهم، فقال صفوان: والله إن في العيش بعدهم خير؟ قال له عمير: صدقت واللَّه، أما واللَّه لولا دين علي ليس له عندي قضاء، وعيال أخشى عليهم الضيعة بعدي، لركبت إلى محمد حتى أقتله، فإن لي قبلهم علة: ابني أسير في أيديهم قال: فاغتنمها صفوان وقال: علي دينك، أنا أقضيه عنك، وعيالك مع عيالي أواسيهم. ما بقوا، لا يسعني شيء ويعجز عنهم فقال له عمير: فاكتم شأني وشأنك قال: أفعل.

قال: ثم أمر عمير بسيفه، فشحذ له وسم، ثم انطلق حتى قدم المدينة فبينا عمر بن الخطاب رضي الله عنه في نفر من المسلمين يتحدثون عن يوم بدر، ويذكرون ما أكرمهم اللَّه به، وما أراهم من عدوهم، إذ نظر عمر إلى عمير بن وهب حين أناخ على باب المسجد متوشحاً السيف، فقال: هذا الكلب عدو اللَّه عمير بن وهب، واللَّه ما جاء إلاّ لشر. وهو الذي حرش بيننا، وحزرنا للقوم يوم بدر.



ثم دخل عمر رضي الله عنه على رسول اللَّه ﷺ فقال: يا نبي اللَّه، هذا عدو اللَّه عمير بن وهب قد جاء متوشحاً سيفه، قال:

"فأدخلْه عليَّ"

فأقبل عمر رضي الله عنه حتى أخذ بحمالة سيفه فرط عنقه فلببه بها، وقال لرجال ممن كانوا معه من الأنصار: ادخلوا على رسول اللَّه ﷺ فاجلسوا عنده، واحذروا عليه من هذا الخبيث، فإنه غير مأمون، ثم دخل به على رسول اللَّه ﷺ.

فلما رآه رسول اللَّه، وعمر آخذ بحمالة سيفه في عنقه، قال:

"أرسلْه يَا عُمَرُ، ادْنِ يَا عُمير؟"

فدنا ثم قال: انعموا صباحاً، وكانت تحية أهل الجاهلية بينهم، فقال رسول اللَّه ﷺ:

"فقد أَكْرَمَنَا اللَّهُ بتحيةٍ خَيْرٍ مِنْ تَحِيَّتِكَ يَا عُمير، بِالسَّلَامِ: تَحِيَّةُ أَهْلِ الْجَنَّةِ".

فقال: أما واللَّه يا محمد إن كنت بها لحديث عهد.

قال: **"فَمَا جَاءَ بِكَ يَا عُمَيْرُ؟"**

قال: جئت لهذا الأسير الذي في أيديكم فأحسنوا فيه.

قَالَ: **"فَمَا بَالُ السيفُ فِي عُنُقِكَ؟"**



قال: قبحها الله من سيوف، وهل أغنت عنا شيئا؟.

قَالَ: **"اصدقْني، مَا الَّذِي جئتُ لَهُ؟"**

قال: ما جئت إلا لذلك.

قَالَ: **"بَلْ قعدتَ أَنْتَ وَصَفْوَانُ بْنُ أُمَيَّةَ فِي الحِجْر، فَذَكَرْتُمَا أصحابَ الْقَلِيبِ مِنْ قُرَيْشٍ، ثُمَّ قُلْتَ، لَوْلَا دَيْنٌ عليَّ وَعِيَالٌ عِنْدِي لَخَرَجْتُ حَتَّى أقتلَ مُحَمَّدًا، فَتَحَمَّلَ لَكَ صَفْوَانُ بِدَيْنِكَ وَعِيَالِكَ، عَلَى أَنْ تَقْتُلَنِي لَهُ، وَاللَّهُ حَائِلٌ بَيْنَكَ وَبَيْنَ ذَلِكَ"**

قال عمير: أشهد أنك رسول اللَّه، قد كنا يا رسول اللَّه نكذبك بما كنت تأتينا به من خبر السماء، وما ينزل عليك من الوحي، وهذا أمر لم يحضره إلاّ أنا وصفوان، فواللَّه إني لأعلم ما أتاك به إلا اللَّه، فالحمد للَّه الذي هداني للإسلام وساقني هذا المساق، ثم شهد شهادة الحق. فقال رسول اللَّه ﷺ:

"فَقِّهُوا أَخَاكُمْ فِي دِينِهِ، وَأَقْرِئُوهُ الْقُرْآنَ، وَأَطْلِقُوا لَهُ أسيره"، ففعلوا.

ثم قال: يا رسول الله، إني كنت جاهدا على إطفاء نور اللَّه، شديد الأذى لمن كان على دين اللَّه ﷻ، وأنا أحب أن تأذن لي، فأقدم مكة، فأدعوهم إلى اللَّه تعالى، وإلى رسوله ﷺ، لعل اللَّه يهديهم، وإلا آذيتهم في دينهم كما كنت أوذي أصحابك في



دينهم؟ فأذن له رسول اللَّه ﷺ فلحق بمكة، وكان صفوان بن أمية حين خرج عمير بن وهب، يقول: أبشروا بوقعة تأتيكم الآن في أيام، تنسيكم وقعة بدر، وكان صفوان يسأل عنه الركبان، حتى قدم راكب فأخبره عن إسلامه، فحلف أن لا يكلمه أبداً، ولا ينفعه بنفع أبداً. فلمّا قدم عمير مكة، أقام بها يدعو إلى الإسلام، ويؤذي من خالفه أذى شديداً، فأسلم على يديه ناس كثير. فوقف عمير على صفوان، وهو في الحجر، فقال:

فقال: أبا وهب! فأعرض عنه، فقال عمير: أنت سيد من ساداتنا، أرأيت الذي كنا عليه من عبادة حجر والذبح له، أهذا دين؟ أشهد أن لا إله إلا اللَّه، وأن محمداً عبده ورسوله. فلم يجبه صفوان بكلمة.[٢٣]

يقول جابر بن عبد اللَّه رضي الله عنه:

«سرنا مع رسول الله ﷺ حتى نزلنا وادياً أفيح (واسع) فذهب رسول اللَّه ﷺ يقضي حاجته فأتبعته بإداوة من ماء، فنظر رسول اللَّه ﷺ فلم يرَ شيئاً يستتر به، وإذا شجرتان بشاطئ الوادي، فانطلق رسول اللَّه ﷺ إلى إحداهما، فأخذ بغصن من أغصانها فقال: **"انقادي عليَّ بإذن اللَّه"**

٢٣. انظر: ابن هشام، ٢، ٣٠٦ ـ ٣٠٩؛ الواقدي، ١، ١٢٥ ـ ١٢٨؛ ابن سعد، ٤، ١٩٩ - ٢٠١؛ الهيثمي، ٨، ٢٨٤ - ٢٨٦.



فانقادت معه كالبعير المخشوش (المنقاد من أنفه) الذي يصانع قائده، حتى أتى الشجرة الأخرى، فأخذ بغصن من أغصانها، فقال: :"**انقادي عليَّ بإذن اللَّه**"، فانقادت معه كذلك، حتى إذا كان بالمَنْصَف (نصف المسافة) بينهما لَأَمَ بينهما يعني جمعهما فقال: "**الْتَئِمَا عَلَيَّ بِإِذْنِ اللَّهِ**" فالتأمتا. فخرجت أحضر (أجري) مخافة أن يحسَّ رسول الله ﷺ بقربي فيبتعد، فجلست أحدث نفسي فحانت مني لفتة (نظرة إلى جنب)، فإذا أنا برسول اللَّه ﷺ وإذا الشجرتان قد افترقتا فقامت كل واحدة على ساق، فرأيت رسول اللَّه ﷺ وقف وقفة فقال برأسه هكذا -وأشار الراوي برأسه يميناً وشمالاً- ثم أقبل فلما انتهى إليَّ قال: "**يَا جَابِرُ هَلْ رَأَيْتَ مَقَامِي؟**"، قلت: نعم يا رسول اللَّه، قال:

"**فَانْطَلِقْ إِلَى الشَّجَرَتَيْنِ فَاقْطَعْ مِنْ كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا غُصْنًا، فَأَقْبِلْ بِهِمَا، حَتَّى إِذَا قُمْتَ مَقَامِي فَأَرْسِلْ غُصْنًا عَنْ يَمِينِكَ وَغُصْنًا عَنْ يَسَارِكَ**"...

ففعلت ثم لحقته فقلت: قد فعلت يا رسول اللَّه فعمَّ ذاك؟، قال:

"**إِنِّي مَرَرْتُ بِقَبْرَيْنِ يُعَذَّبَانِ، فَأَحْبَبْتُ، بِشَفَاعَتِي، أَنْ يُرَفَّهَ عَنْهُمَا، مَا دَامَ الْغُصْنَانِ رَطْبَيْنِ**"... فقال:"**يَا جَابِرُ نَادِ بِوَضُوءٍ**"

فقلت: ألا وَضُوء؟ ألا وضوء؟ ألا وضوء؟، قال قلت:



يا رسول اللَّه ما وجدت في الرَّكْب من قطرة، وكان رجل من الأنصار يبرد لرسول الله ﷺ الماء في أشجاب له على حمارة من جريد (أعواد تعلق عليها أسقية الماء)، فقال لي: "**انْطَلِقْ إِلَى فُلَانِ ابْنِ فُلَانٍ الْأَنْصَارِيِّ، فَانْظُرْ هَلْ فِي أَشْجَابِهِ مِنْ شَيْءٍ؟**"، قال: فانطلقت إليه فنظرت فيها فلم أجد فيها إلا قطرة في عزلاء شجب منها (فم قربة قديم)، لو أني أفرغه لشربه يابسه. فأتيت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول اللَّه إني لم أجد فيها إلا قطرة في عزلاء شجب منها، لو أني أفرغه لشربه يابسه، قال: "**اذْهَبْ فَأْتِنِي بِهِ**"، فأتيته به فأخذه بيده فجعل يتكلم بشيء لا أدرى ما هو، ويغمزه بيديه، ثم أعطانيه، فقال: "**يَا جَابِرُ نَادِ بِجَفْنَةٍ**"، فقلت: "يا جفنة الركب"، فأتيت بها تُحمل، فوضعتها بين يديه، فقال رسول اللَّه ﷺ بيده فى الجفنة هكذا، فبسطها وفرق بين أصابعه، ثم وضعها في قعر الجفنة، وقال: "**خُذْ يَا جَابِرُ فَصُبَّ عَلَيَّ، وَقُلْ بِاسْمِ اللهِ**"، فصببت عليه وقلت باسم الله، فرأيت الماء يفور من بين أصابع رسول اللَّه ﷺ، ثم فارت الجفنة ودارت حتى امتلأت، فقال:

"**يَا جَابِرُ نَادِ مَنْ كَانَ لَهُ حَاجَةٌ بِمَاءٍ**"، قال: فأتى الناس فاستقوا حتى رووا .. قال: فقلت: هل بقي أحد له حاجة، فرفع رسول الله ﷺ يدَه من الجفنة وهي مَلْأَى وشكا الناس إلى رسولِ اللَّهِ ﷺ الجوع، فقال: "**عَسَى اللَّهُ أَنْ يُطْعِمَكُمْ**" فأتينا سيف البحر

فزخر البحر زخرة، فألقى دابة، فأورينا على شقها النار، فاطبخنا واشتوينا، وأكلنا حتى شبعنا، قال جابر: فدخلت أنا وفلان وفلان، حتى عد خمسة، في حجاج عينها ما يرانا أحد، حتى خرجنا، فأخذنا ضلعا من أضلاعه فقوسناه، ثم دعونا بأعظم رجل في الركب، وأعظم جمل في الركب، وأعظم كفل في الركب، فدخل تحته ما يطأطئ رأسه (مسلم، الزهد، ٧٤)

كان النبي ﷺ حين يدعو لأحد بشيء يُرى أثر هذا الدعاء عليه إلى آخر عمره، حيث دعا لأبي هريرة رضي الله عنه بعدم نسيانه أي حديث يسمعه طول حياته، وبالبركة في العمر والمال والأولاد لأنس بن مالك، وبالحصول على البركة لبشير بن عقربة طوال حياته، وبالحياة المديدة لأبي اليَسَر حتى تستفيد منه الأمة الإسلامية، ونكتفي بذكر هاتين الحادثتين مثالاً على هذا:

عن عبد اللَّه بن هشام، ذهبت به أمه زينب بنت حميد إلى رسول اللَّه ﷺ، فقالت: يا رسول اللَّه بايعه، فقال:

"**هُوَ صَغِيرٌ**" فمسح رأسه ودعا له. وعن زهرة بن معبد، أنه كان يخرج به جده عبد اللَّه بن هشام إلى السوق، فيشتري الطعام، فيلقاه ابن عمر، وابن الزبير رضي الله عنهما، فيقولان له: «أشركنا فإن النبي ﷺ قد دعا لك بالبركة»، فيشركهم، فربما أصاب الراحلة كما هي، فيبعث بها إلى المنزل. (البخاري، الشركة، ١٣/ ٢٥٠١)



عن الجعيد بن عبد الرحمن، رأيت السائب بن يزيد، ابن أربع وتسعين، جلداً معتدلاً، فقال: قد علمت: ما متعت به سمعي وبصري إلاّ بدعاء رسول اللّه ﷺ، إن خالتي ذهبت بي إليه، فقالت: يا رسول اللّه، إن ابن أختي شاك، فادع اللّه له، ... فمسح رأسي ودعا لي بالبركة، تَوضَأ فشربت من وضوئه. (البخاري، المناقب، ٢١-٢٢/ ٣٥٤٠)

ويقول أبو هريرة رضي الله عنه:

كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ فِي مَسِيرٍ، قال: فنفدت أزواد القوم، قال: حتى هم بنحر بعض حمائلهم، قال: فقال عمر: يا رسول الله، لو جمعت ما بقي من أزواد القوم، فدعوت اللّه عليها، قال: ففعل، قال: فجاء ذو البر ببره، وذو التمر بتمره، قال: وقال مجاهد: وذو النواة بنواه، قلت: وما كانوا يصنعون بالنوى؟ قال: كانوا يمصونه ويشربون عليه الماء، قال: فدعا عليها قال حتى ملأ القوم أزودتهم، قال: فقال عند ذلك:

"أَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ، لا يَلْقَى اللَّهَ بِهِمَا عَبْدٌ غَيْرَ شَاكٍّ فِيهِمَا إِلَّا دَخَلَ الْجَنَّةَ" (مسلم، الإيمان، ٤٤/ ٢٧)



يجلي الحق تعالى دينه كلما اختلطت به العقائد الباطلة وأُفسده الناس على مرّ التاريخ، وأرسل رسلاً يرشدون عباده ويفصلون بين الجواهر الثمينة وغيرها من الزبد الذي يذهب هباءً. أي أن جميع القوانين الإلهية وكل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قد أتوا من مصدر واحد مرتبطة ببعضها كحلقات سلسلة ذهبية، وكان القرآن الكريم والنبي ﷺ الحلقة الأخيرة لهذه السلسلة.

قد حاولنا في هذا الكتيب إعطاء معلومات جوهرية كقطرة في أنهار لا حدود لها، وبذلنا جهدنا في إطار طاقتنا لتناول نظرة الإسلام إلى كل من الإنسان والطبيعة والحياة والدنيا والآخرة، ونقلنا تجارب الناس الذين بحثوا في الإسلام ودخلوا فيه، وقد وصل كثير من الناس بعد البحث والدراسة إلى أن الإسلام هو الدين السماوي الخاتم الذي لا تحريف فيه، وبهذا فإن أعداد الناس المعتنقين للإسلام في ازدياد وفق نتائج الأبحاث الطويلة، ولا إمكان للخطأ في هذه التجارب المتراكمة، وما من



شك في النتيجة المحصلة من التجارب العديدة، ثم إنه عندما يُدقق الإسلام بعمق يتضح اشتماله على الكثير من الجماليات عدا التي ذكرناها، وللأسف فإن تعليم الإسلام في يومنا فيه انحرافات وأخطاء أو يحاول البعض ستر حقيقته، وأما ما يليق بالإنسان العاقل فأن يقرر بعد تعلم الإسلام جملة واحدة من المصادر الأصلية بعيداً عن الحكم السابق لأوانه وغير منحاز إلى أي طرف.

ليكرم اللَّه تعالى جميع البشر بالسعادة في الدارين! وليمنَّ علينا جميعاً أن نستغل فترة الامتحان التي قدرت علينا قبل انتهاء الحياة الدنيا، وليجعل هذا الأثر الذي بين أيديكم سبباً ووسيلة في هذا الطريق. آمين

﴿سُبْحانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ وَسَلامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ﴾

(الصافات، ١٨٠ - ١٨٢)



المحتويات



القسم الثاني: العقيدة والعبادة والمعاملة / ٦٧



القسم الثالث: القرآن الكريم/ ١٢٩

القسم الرابع: نبي الرحمة محمد المصطفى ﷺ / ١٧١

